تفسير

سورة يوسف

(عليه السلام)

مشاهد ..... ودروس

إعداد

دكتور .. عبد الحي الفرماوي

١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

(لقـد كـان فـي قصصـهم عبـرة لأولـي الألباب)

(يوسف ـ ١١١)

إضاءة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن والاه .

أما بعد:

فهذا ـ الذي بين يديك أخي المسلم وأختي المسلمة ـ تفسير ل " سورة يوسف " عليه السلام ، أُعِدَّ على هذا النحو الذي سوف تراه ، بإذن الله تعالى ، قدر طاقتي البشرية ، وَوفقَ معونة الله لي .

وهو عبارة : عن المادة العلمية لمجموعة من المحاضرات ، التي ألقيت في مركز الشيخ الحصري ، عليه رحمة الله ، بمنطقة العجوزة ـ بالقاهرة ، في صيف عام ١٤١٩ هـ ـ١٩٩٨ م ، والتي تم تسجيلها على مجموعة من شرا ئط " الفيديو " بواسطة القائمين على "دار الكلمة ..للإ نتاج الفني " بالمنصورة ، جزاهم الله خيرا .

هذا ...

وقد كانت مرجعيتي في هذا التفسير وهذه المحاضرات :

آيات القرآن الكريم .

ثم صحيح حديث النبي صلىالله عليه وسام .

ثم أقوال : السلف الصالح من هذه الأمة ، وعلمائها.

ممثلا كل ذلك .. في مجموعة من المراجع العلمية الأصيلة التي اعتمدها ، ويعتمد عليها العلماء والباحثون .

كما كان منهجي في هذا التفسير كذلك :

(أ) تقديم المعلومة في عبارة واضحة مبسطة ميسرة ، دون اختصار مخل ولا تطويل ممل .

(ب) عدم التعرض للبحوث اللغوية أو الفقهية ، أوغير ذلك مما اعتنى بذكره علماء التفسير ـ جزاهم الله عنها وعنا خيرا ـ إلا بالقدر اليسير ، والضروري جدا ، حتى لايحال بذلك بين القارئ وسهولة الوصول إلى: هدف السورة ، وفهم مقاصدها، وتطبيق تعاليمها.

(ج) الاهتمام بتوضيح الدروس التربوية ، التي تفيض بها آيات هذه السورة الكريمة ـ كغيرها من سور القرآن الكريم . وذلك .. إ فادة للمسلمين ، وإ نارة لطريق العاملين في حقل الدعوة ، وأخذا بأيدي أبناء الحركة الاسلامية ـ في وعي وَرُشْد ، إن شاء الله تعالى ـ لإحداث التغيير المطلوب منهم ، وبهم ؛ تحقيقا لمنهج الله تعالى وإعلاءً لشأن هذه الأمة .

***

وقـد اقتـرح القـائمون علـى " دار الكلمـة " جـزاهم الله خيـرا : اخـراج هـذه المحاضرات ، في كتاب مطبوع مستقل ـ بجوار: شرائط الفيديو ، وشرائط الكاسيت ـ ليعم النفع وتنتشر الفائدة ، ويكثر الثواب .. !!

وكان هذا الكتاب .. الذي بين يديك .. !!

وأضرع إلى الله تعالى : أن يعفو عني ، لما فيه من تقصير ، وأن يغفر لـي مـا يكون من خطا فيه ، وأن يجعل صوابه وثوابه في ميزان حسناتي في يوم لا ينفع فيه (مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم)

د . عبد الحي حسين الفرماوي

أستاذ التفسير وعلوم القرآن الكريم
بجامعتي
الأزهر بالقاهرة ـ وأم القرى بمكة المكرمة

مكـة المكـرمة
الأربعاء
غرة رجب ١٤١٩ هـ ـــ٢١ من أكتوبر ١٩٩٨ م

مدخل
لتفسير السورة

أولا : الدعوة قبل نزول سورة يوسف عليه السلام .

ثانيا : الظروف التي نزلت فيها السورة .

ثالثا : الهدف من هذه السورة .

رابعا : سبب نزول السورة .

خامسا : أبرز موضوعاتها .

سادسا : التقسيم التفسيري للسورة .

أولا : الدعوة الإسلامية قبل نزول سورة يوسف .. في سطور .

... انتهت مرحلة السنوات الثلاث الأول من العهد المكي ، وهي المعروفة " بمرحلة الدعوة السرية " ، بنزول :

قولـه تعالى للحبيب صلى الله عليه وسلم (وأنْذر عشيرتك الأقربين * واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين)[١].

وقوله تعالى (وقل إني أنا النذير المبين)[٢].

وقوله تعالى (فاصْدَع بما تؤمر وأعرض عن المشركين)[٣].

وبدأت الدعوة علنية ، في غير خفية ولا مواربة ، قوية ، عالية الصوت ، واضحة الفكرة والمعالم : بصعود النبي صلى الله عليه وسلم جبل الصفا ، المطل على الكعبة المشرفة وحرمها ، مناديا بأعلى صوته ، ، داعبا قومه للدخول في الإسلام ، ومُنْذِرا لهم ، إن رفضوا أو عاندوا ، وجحدوا ما جاء به ، ومبشرا لهم بالسيادة والسعادة ، إن آمنوا بما جاء به واتبعوه .

وكان ذلك : حدَثا جديدا ، وأمْرا جللا ، وقع عليهم كالصاعقة ، هز سكونهم ، وزلزل رواسخهم !!!

فماذا فعلوا ...؟

لقد : فكروا وقدروا ، ثم نظروا ، ثم عبثوا وبسروا ، ثم ... ثم أدبروا واستكبروا !

ولم ينته الأمر عند هذا الحد ...

فقد استمر النبي صلى الله عليه وسلم في تبليغهم دعوة ربه ، وما كان له أن يسكت أو يكف عن ذلك ...!!

كما أنهم : استمروا على كفرهم وعنادهم - إلا القليل ممن هداه الله منهم - بل انتقلوا من مرحلة العناد والتكذيب فقط ، إلى مرحلة الإستهزاء به وبدعوته ، والإيذاء لمن يؤمن بها ويتبعه .

---

١ - الشعراء : ٢١٤، ٢١٥.
٢ - الحجر : ٨٩.
٣ - الحجر : ٩٤

وقد أخذ هذا العناد والإستهزاء والإيذاء : ألوانا عديدة من المفاوضات والمساومات ، مع النبي صلى الله عليه وسلم ، ومع عمه أبي طالب ، والتنكيل بصحابته الكرام ، حتى وصل الأمرإلى استعمال سلاح جديد في مقاومة هذه الدعوة ، وانتشار مبادئها ، وهو : سلاح " المقاطعة الإقتصادية والإجتماعية " له صلى الله عليه وسلم وأصحابه وعشيرته .
وقد استمرت هذه المرحلة سبع سنوات كاملة ، من بدء الجهر بالدعوة إلى انتهاء هذا " الحصار " الذى فرضته رؤوس الكفر على النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين معه في شعب أبي طالب ، والذى كان لا يصل فيه شيء لأحد منهم إلا سرا ، ولا منهم لأحد - كذلك - إلا سرا ، حتى إنه - من شدة الحصار - كانوا يقتاتون - أحيانا - ورق الشجر .
وخلال هذه السنوات العشر : كان القرآن ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم ، بمبادئ هذه الدعوة المباركة ، ويُحَطِّم مبادئ الكفر وأئمته ، ويربي هذه الجماعة الوليدة على أسسه القويمة ، ويزكي خلقها ، ويقوي ارادتها ، ويؤهلها لأمر يعده الله تعالى لها ، ويعدها له .
وفي الوقت ذاته : يواسي النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام على ما يلاقيه ويلاقونه ، ويُثَبِّتُه ويثبتهم ، ويشدُّ من أزْره وأزْرهم .

***

و لم تنته هذه المقاطعة التي ذكرت ، و يخرج منها النبي ρ و المسلمون معه حتى كانت الابتلاءات و المحن ، التي أثقلته و أحزنته عليه الصلاة و السلام ..
فقد مات السندان أبو طالب الذي كان خط دفاعه ضد المشركين ، و السيدة خديجة رضي الله عنها ، التي كانت له نعم المشير ، و نعم الرفيق ، و نعم الزوج.
و لشدة وقع هذه الأحداث على النبي ρ : فقد سُمِّيَ هذا العام عام الحزن.
و ذلك : قبل الهجرة بثلاث سنوات (٦١٩ م)

ثانيا : الظروف التي نزلت فيها سورة يوسف عليه السلام .

في هذا الجو ، وفي هذه الظروف ، وفي هذه الفترة من عام الحزن حتى هجرة النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي فترة لها ظروفها الخاصة ، التي تختلف بها عن العشرالسنوات السابقة ؛ حيث ... زاد التكذيب والتعذيب والإيذاء والنكاية بالنبي صلى الله عليه وسلم - ذاته - أشد مما كان قبلا ..!!!

ولكن ... بدأت تلوح فى أفق الدعوة وأهلها كذلك الإرهاصات والبشائر بالفرج ، على نحو لا يتسع المقام لذكره .. !!
أقول : خلال هذه الفترة ، وفي هذا الجو ، كان القرآن ـ بطبيعة الحال ـ ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وكان مما نزل آنئذ : سورة الإسراء ، ثم سورة يونس ، ثم سورة هود ، ثم .. نزلت سورة يوسف .
وعلى ذلك : فيبدو ـ والله أعلم ـ أن الهدف من نزولها ما يلي :

ثالثا : الهدف من سورة يوسف عليه السلام .

تهدف هذه السورة ـ بجانب الأهداف العامة للسور المكية ـ إلى :
التأنيس للنبي ρ.
و إعلامه بما لاقاه بعض إخوانه من الأنبياء.
والتثبيت له في دعوته ، بإطّلاعه على غيب لا يعرفه إلا الله سبحانه و تعالى.
و التربية لأتباعه و جماعته ، التي تحتاج إلى هذه الدروس التربوية ، التي تُهيِّؤها وتعدُّها و تكوِّنها لنشر هذا الدين ، و إقامة دولته في دنيا الناس.
خاصة و أن الفرج قد اقترب ، و النصر قد أزف موعده ، إذ لم تمض الأعوام حتى كانت بيعة العقبة الأولى ، ثم بيعة العقبة الثانية ، التي جعل الله فيهما لرسوله ρ ، و للعصبة المسلمة معه ، و للدعوة الإسلامية ، فرجا و مخرجا بالهجرة إلى المدينة.

رابعا : سبب نزول السورة .

ولأن حديثنا هنا خاص بسورة يوسف .. !!
ولأننا عرفنا ـ على نحو موجز ـ الظروف التي نزلت فيها .. !!
فإنه من المناسب : أن نعرف السبب المباشر لنزولها ، خاصة .. وأنها نزلت جملة واحدة ، وليست مفرقة على أبعاض ، كغيرها من بعض سور القرآن الكريم .

حيث يذكر الإمام القرطبي[١] : أنهم سألوا النبي ρ و هو بمكة ، فقالوا أخبرنا عن رجل من الأنبياء كان بالشام ، أُخْرِج ابنه إلى مصر ، فبكى عليه حتى عمي ؟

و لم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب ، و لا من يعرف خبر الأنبياء ، و إنما وَجَّه اليهود إليهم من المدينة ، يسألونه عن هذا ..

فأنزل الله عز و جل سورة يوسف ، جملة واحدة ، فيها كل ما في التوراة من خبر و زيادة.

خامسا : أبرز موضوعات السورة .

وهذه السورة الكريمة .. تعرض من خلال : مقدمتها ، وقصتها ، وخاتمتها : موضوعات عديدة ، كانت الجماعة المسلمة ـ وما تزال ـ في أمس الحاجة لمعرفتها ، والتربية على هدْيها .

ومن هذه الموضوعات ٢:

اـ الحديث عن المحن و الابتلاءات ، التي تعرض لها نبي الله يوسف عليه السلام .. مثل :

محنة .. كيد الأخوة.
محنة .. الجب ، و الخوف ، و الترويع.
محنة .. الرق .. و الانتقال كالسلعة من يد ليد.
محنة .. الإغراء و الشهوة و الفتنة.
محنة .. كيد امرأة العزيز و النسوة.
محنة .. السجن بعد رغد العيش.
محنة .. الرخاء ، و السلطان المطلق في يديه.
محنة .. المشاعر البشرية ، و هو يلقى من ألقوه في الجب.

ب- الحديث عن النماذج البشرية المتنوعة .. مثل :

نموذج الوالد .. المحب الملهوف.

نموذج الأخوة .. و مواقف الغيرة ، و الحسد ، و الحقد ، و المؤامرة ، و المناورة ، و مواجهة آثار الجريمة.

---

١ القرطبي ٩/١٣٠

٢ ـ انظر الظلال ١٢ /١٩٤٩ـ١٩٦٨ (بتصرف
٩٦٨ (بتصرف واختصار)

نموذج امرأة العزيز .. بكل غرائزها ، و رغائبها ، و اندفاعاتها الأنثوية.
نموذج النسوة .. من طبقة العلية في مصر الجاهلية.
نموذج العزيز .. و عليه ظلال طبقته و بيئته في مواجهة جرائم الشرف من خلال مجتمعه.
نموذج الملك .. الصورة...!!
نموذج العبد الصالح .. و هو يواجه الفتنة بكل بشريته.
ج- الحديث عن بعض صور المجتمع الجاهلي في طبقة العِلْيَة من الناس :
في البيت.
في السجن.
في السوق.
في الديوان.
د- الحديث عن الصورة الواضحة الكاملة الشاملة للإسلام ، كما عرضها يوسف عليه السلام.
حيث تقرر : وحدة العقيدة الإسلامية التي جاء بها الرسل جميعا.
كما تقرر طبيعة التوحيد الذي دعا إليه الرسل جميعا.
هـ- الحديث عن أسلوب الدعوة إلى الله بالكلمة و الموقف .. بالحكمة و الموعظة الحسنة .. في السراء و الضراء ، في السجن و المحنة ،و في سدة الحكم و رخاء الحال.
و- الحديث عن الرؤيا ، و تأويلها ، و علاقة ذلك بالدعوة و الداعية.
ز- إلى غير ذلك من الموضوعات والدروس[١] ، التي تحتاجها الجماعة المسلمة ، لبناء صفها من جديد ، و تسوية صفوفها من جديد ، و ممارسة وظيفتها من جديد ، و امتلاك خيريتها من جديد .

---

١ ـ تم ـ بفضل الله تعالى استخراج ثمانية وتسعين درسا تربويا ، من آيات هذه السورة الكريمة ، نسأل الله تعالى : أن ينفعنا والمسلمين بها .

سادسا : التقسيم التفسيري لآيات السورة .

هذا ...
ولأنه من المعلوم : أن آيات السورة (١١١) آية .
فإننا عند محاولتنا هذه لتفسيرها ، وحسب ما تفيده آياتها ، وكذلك : لتيسير هذا التفسير ، وتقديمه في صورة مبسطة ، مشوقة ..!!
رأينا : تقسيمها إلى .. مقدمة ، وقصة ، وخاتمة ، على النحو التالي :

أ ـ المقدمة ..وهي تستغرق ثلاث آيات فقط (من الآية رقم ١ إلى نهاية الآية رقم ٣)

ب ـ القصة .. وهي تستغرق ثمان وتسعون آية (من الآية رقم ٤ إلىنهاية الآية رقم ١٠١) .
وقد تم تقسيم آيات هذه القصة الكريمة ، إلى ستة فصول ، وكل فصل منها يحتوى على عدة مشاهد ، مقتدين في ذلك .. بما فعله المرحوم شهيد الإسلام ، الأستاذ / سيد قطب في كتابه النفيس " في ظلال القرآن " .
ووضعنا لكل فصل : عنوانا مستقلا .
وكذلك لكل مشهد من هذه المشاهد : عنوانا خاصا .
وهذه العناوين جميعها : عبارة عن أجزاء من بعض آيات السورة الكريمة ، رأينا أنها تدل بشكل واضح ، على محتويات الفصل ، أو موضوع المشهد .
كما كتبنا لكل مشهد : موجزا بمضمونه ، يشبه التفسير الإجمالي ، قبل البدء في التفسير ، الذى تتصدره الآيات الكريمة مكتوبة بالرسم العثماني ، ومشكولة كذلك .
وكانت هذه الفصول والمشاهد على النحو التالي :
١ ـ الفصل الأول : (إن الشيطان للإنسان عدو مبين)
وفيـــــــــــه : أربعة مشاهد .
٢ ـ الفصل الثاني : (وقال الذى اشتراه من مصر لإمرأته اكرمي مثواه)
وفيـــــــــــه : خمسة مشاهد .
٣ ـ الفصل الثالث : (ودخل معه السجن فتيان)
وفيـــــــــــه : خمسة مشاهد .
٤ ـ الفصل الرابع : (وكذلك مكنا ليوسف)
وفيـــــــــــه : خمسة مشاهد .

٥ ـ الفصل الخامس: (صواع الملك)

وفيـــــــــــــــه : خمسة مشاهد .
٦ ـ الفصل السادس : (هذا تأويل رؤياى من قبل)
وفيـــــــــــــه : ستة مشاهد .

ج ـ وأخيرا ... خاتمة السورة.. وهي تستغرق عشر آيات (من الآيـة رقم ١٠٢ إلـى نهاية السورة ـ الاية رقم ١١١)

***

ونرجـو مـن الله تعـالى : التوفيـق ، وإقالـة العثـرات ، والعفـو عـن الـزلات ، وقبـول الصالحات ، انه ـ سبحانه ـ وَلِشيٌ ذلك ، والقادر عليه .

مقدمة السورة

(من الآية ١ ـ ٣)

(أ) مَضْمون المقدمة

لاحظ ابتداء أخي القارئ ، وأختي القارئة : أن آيات هذه المقدمة ترتبط ارتباطا وثيقا ، ومباشرا بآيات خاتمة السورة الكريمة .

ومضمون هذه المقدمة ، عبارة عن :

حديث مباشر ـ مَؤْنِس ، مَعَلّم ـ إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ومعه ، من رب العزة سبحانه وتعالى .

وكذلك : حديث واضح عن القرآن الكريم ، فيه الإشارة إلى أن آيات هذه السورة الكريمة ـ ومنها.. بالضرورة : هذه السورة ـ قد احتوت على (أحسن القصص) المؤدي إلى رجاحة العقل ، والموصل إلى النجاة من الغفلة المهلكة .

***

وكأني بهذه المقدمة : توثيق للنبي صلى الله عليه وسلم ، ولهذا الكتاب الذي أنزل عليه ، ولما حواه من قصص وغيره .

وكأني بها تقول : لا مجال لإنكار منكر ولا لتكذيب مكذب .. لما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا لما حواه هذا الكتاب .

(ب) آيات هذه المقدمة .

يقول الله سبحانه و تعالى :

(ج)التفسير .. والدروس التربوية .

الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾

{ الر} هي حروف من اللغة العربية ، التي يتكلم بها الناس ، و جاءت على هذا النحو هنا و في غير هذه السورة كذلك من بعض سور القرآن : لفتًا لأنظار من كانوا يبتعدون عن سماع آيات الله ، و يُبْعِدون غيرهم عنها ، حتى لا يتأثروا بدعوة محمد ρ ، و كانوا يقولون لبعضهم البعض {لا تسمعوا لهذا القرآن} بل بالغوا في هذا الانصراف و الإحجام و العداء ، إذ قالوا أيضا{و الغوا فيه لعلكم تغلبون}.١

و مع ذلك : غلبهم القرآن ، و شد انتباههم ، و جذب اهتمامهم ، بهذه الحروف المقطعة.

فلما استمعوا إليها عاجلهم بالدعوة ، و أسمعهم آياتها.

---

(١) فصلت ٤٦

كما يقول هنا (تلك آيات الكتاب المبين) أي : هذه الآيات البليغة ، الفصيحة ، الظاهر أمرُها في جمال البيان ، و قوة الإعجاز ، و التي تبين لمن سمعها و تدبرها أنها من عند الله ، لا من عند بشر

نعم .. هذه الآيات ، التي تأتي في هذه السورة الكريمة ، و غيرها من الآيات في كل سورة : هي الآيات ، التي يتكون و يتركب و يذخر بها هذا الكتاب الواضح ، الموضِّح ، الميسِّر ، الميسَّر ، المبين لما فيه ، و بما فيه ، و لمن اهتدى بالذي فيه.

هذا الكتاب .. يقول عنه رب الأرض و السماوات :

{إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون}

أي أن الذي أنزله هداية للناس ، هو رب الناس سبحانه و تعالى.
و قد أنزله قرآنا يُقرأ بسهولة ، و يُحفظ في الصدور ، و في السطور ، و تعهد بحفظه {إنا نحن نزلنا الذكر و إنا له لحافظون} ١
يقرأه المتعلم ، و يقرأه الأمي ، يفهمه و يدرك معانيه صاحب الثقافة الرفيعة ،
و يحس بروعته و حلاوته من لا ثقافة لديه ، و لا علم عنده.
يخشع له قلب العابد المحب.
و يخشى الاستماع إليه المعاند العابث اللاهي.

و هنا تبدو هذه الدروس التربوية الهامة :

(الدرس الأول)٢
ينبغي على الداعية أن يحسن عرض دعوته ، و أن يسوقها بأوضح العبارات ، وأسهلها أداء ، و أقدرها وفاء بالمعنى.
حيث إن القرآن نزل عربيا {إنا أنزلناه قرآنا عربيا}.
و كان ذلك ، لأن لغة العرب : أفصح اللغات ، و أبينها ، و أوسعها ، و أكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس.

(الدرس الثاني)٣
ينبغي على الداعية أن يختار لدعوته : الوقت المناسب ، و المكان المناسب ، و اللفظ المناسب ، و أن يختار من كل ذلك : أفضله.

---

(١) الحجر ٩ (٢) الدرس رقم ١ (٣) الدرس رقم ٢

حيث إن القرآن كتاب الدعوة ، الذي هو أشرف الكتب : نزل بأشرف اللغات ، و هي العربية ، على أشرف الرسل ، و هو محمد ρ ، بسفارة أشرف الملائكة ، و هو جبريل عليه السلام ، و كان ذلك في أشرف بقاع الأرض ، و هي مكة المكرمة ، و ابتدأ إنزاله في أشرف شهور السنة و هو رمضان ، و في أشرف ليالي العمر ، و هي ليلة القدر.

(الدرس الثالث)١

ينبغي -كذلك- أن يكون دليل المسلم في : عقيدته و أخلاقه و عباداته و معاملاته .. ، ما جاء في كتاب الله الكريم ، وما ورد عن نبيه ρ
حيث يؤكد ربنا -عز و جل- ذلك بضمائر العظمة ، التي تَلفِت الأنظار إلى أهمية الاعتماد على وَحْيه سبحانه .. إذ يقول {إنا} و {أنزلناه} و {أوحينا} و {نحن نقص}.

(الدرس الرابع)٢
كما ينبغي ألا يغيب على الداعية المسلم - وكل مسلم ينبغي أن يكون داعية لدين الله بعلمه و قوله في حدود ما يعرف- أن يكون اعتماده على الكتاب و السنة ففيهما الغَنْيَة كل الغُنْيَة.

(الدرس الخامس)٣
لم ينزل هذا القرآن ليحتفظ به في المكاتب و الأدراج ، أو في البيوت و السيارات ، أو تحفظ حروفه و آياته ، و تهمل أحكامه و تعاليمه ، بل أنزل لتدبره و فهمه و العمل به ، وصَبْغ الحياة بأحكامه و تعاليمه ، و رفع قيمة الناس بالالتزام بآدابه و تشريعاته ، و إصلاح البلاد بمضمونه و محتواه ، و إسعاد العباد في الدنيا و الآخرة بالامتثال لأوامره و الاجتناب لنواهيه.
و هذا هو المأمول ممن لديهم عقل به يتفكرون ، و عن طريقه يصلون إلى ما في هذا الكتاب من وسائل إسعادهم.

(الدرس السادس)٤
إن الطريق إلى تزكية العقل ، و نمو الفكر ، و اتساع الثقافة ، و طهارة الفهم : هو القرآن.

---

(١) الدرس ٣
(٢) الدرس ٤
(٣) الدرس ٥
(٤) الدرس ٦

حيث إنه : سهل لا لبس و لا غموض فيه {و لقد يسرنا القرآن للذكر} ١
كما أنه : يخاطب العقل بما في وسعه و إدراكه و تحصيله ، إذ {لا يكلف الله نفسا إلا وسعها} ٢.
و ذلك : من قوله تعالى {إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون}.
(الدرس السابع)٣
ينبغي على المسلم أن تكون مرجعيته في آدابه و سلوكه و عاداته و معاملاته وعباداته و أخلاقه مستمدة من كتاب الله تعالى و سنة رسوله ρ ، و ليست من أعراف البشر

، أو ما تواضعوا عليه من عادات و تقاليد ، و لو كانوا {يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا} ٤ ، و لو كانوا يبهرون الأنظار بتقلبهم في البلاد طولا و عرضا ، و لو كانوا يملكون كل زينة الحياة الدنيا ، ما دامت عاداتهم و تقاليدهم بعيدة عن كتاب الله ، و سنة رسوله ρ ، حتى و لو كانت من بقايا أديان سابقة ، أو نِحَل منحرفة.

فعن عبد الله بن ثابت قال : جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله ρ ، فقال : يا رسول الله .. إني مررت بأخ لي من بني قريظة ، فكتب لي جوامع من التوراة ، ألا أعرضها عليك ؟ قال : فتغير وجه رسول الله ρ.

قال عبد الله بن ثابت : فقلت له : ألا ترى ما بوجه رسول الله ρ ؟

فقال عمر : رضينا بالله ربا ، و بالإسلام دينا ، و بمحمد رسولا.

قال : فسُرِّي عن النبي ρ ، و قال : "و الذي نفس محمد بيده : لو أصبح فيكم موسى ، ثم اتبعتموه و تركتموني لضللتم ، إنكم حظي من الأمم ، و أنا حظكم من النبيين"٥.

و في رواية أخرى : قال : "و الذي نفسي بيده : لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبونه ، أو بباطل فتصدقوه ، و الذي نفسي بيده : لو أن موسى حيا : ما وسعه إلا أن يتبعني"٦.

***

---

(١) القمر ١٧،٢٢،٣٢،٤٠
(٢) البقرة٢٨٦
(٣) الدرس رقم ٧
(٤) الروم : ٧
(٥) رواه : أحمد.
(٦) رواه : أحمد .

و بعد أن بين رب العزة في هذه المقدمة للسورة مكانة القرآن الكريم ، و مصدره الذي يستمد منه قدسيته و عظمته ، و كذلك بين رسالة هذا الكتاب و غايته ، و هي تنمية العقول ، حتى تهتدي إلى ربها ، فتعمل بشرعه ، فتنال رضاه : قطع الطريق على المكذبين و المعاندين و الشاكين في صدق محمد ρ بقوله {و إن كنت من قبل لمن الغافلين}.

و لذا فمن أراد النجاة من المعيشة الضنك ، و الهم و الغم في حياته : فعليه بالقرآن {و من أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا} ١.

و من أراد راحة البال ، و هدوء الحال ، و طمأنينة النفس ، و سعادة المآل : فعليه بالقرآن {ألا بذكر الله تطمئن القلوب} ٢.

و من أراد النجاح في عمله ، و الرشد في تصرفاته ، و الهداية في أموره و أحواله : فعليه بالقرآن {إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم}٣.

و من أراد الحماية من الغفلة عن هذا و غيره من روائع القرآن ، و الحماية من الضياع بسبب هذه الغفلة ، و الحماية من النسيان لهذه الآيات البينات ، التي تزكي العقل ، و تنقذ من الغفلة و الجهل فعليه بالقرآن.

فالله تعالى يقول لحبيبه ρ {نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن و إن كنت من قبله لمن الغافلين}.

و إذا كان هذا الكلام و التوجيه لقائدنا و أسوتنا ρ و هو من هو ..!! فما بالنا نحن ..؟

***

---

(١) طه ١٢٤
(٢) الرعد ٨٢
(٣) الاسراء ٩

أقول : بعد أن بين المولى ذلك : دخل بالإشارة إلى محتوى هذه السورة الكريمة.

إعلاما بأهميته ، و دعوة إلى الإفادة منه ، و الاعتبار به ، و التعلم من دروسه ، لتصل الجماعة المسلمة إلى النجاح في غايتها ، و التمكن من رفع راية دعوتها ، و نشر سلطان الله في بقاع الأرض ، و بسط دعائم السلام في دنيا الناس.

حيث يقول {نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن و إن كنت من قبله لمن الغافلين}.

و لو قال تعالى " نحن نقص عليك القصص" لكان كافيا في أنه أحسن القصص ؛ إذ الذي يخبر عن ذلك ، و يقص ذلك القصص : هو الله تعالى {و من أصدق من الله حديثا}[١] {و من أصدق من الله قيلا}[٢] .

و مع ذلك قال سبحانه {أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن} لينبهنا على أن قصص القرآن في أعلى درجات الحسن ، لأنه وحي من الله تعالى ، و لأنه في هذا القرآن الذي {يهدي للتي هي أقوم} ٣.

و إذا كان هذا هو الشأن في قصص القرآن جميعه : فهو في قصتنا هذه ، قصة يوسف عليه السلام ، أوضح و أوضح.

و يلاحظ : أنه لم يرد هذا التعبير القرآني {أحسن القصص} إلا في قصة يوسف عليه السلام فقط ، من دون قصص القرآن كله ، مع أنه حسن كله .. فلم كان ذلك ..؟

قيل ٤ : لأنه ليست قصة في القرآن الكريم تتضمن من العبر و الحكم ما تتضمن هذه القصة ، و بيانه قوله تعالى في آخرها {لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب}.

و قيل : لحسن مجاوزة يوسف عن إخوته ، و صبره على أذاهم ، و عفوه عنهم - بعد الالتقاء بهم- عن ذكر ما تعاطوه ، و كرمه في العفو عنهم ، حتى قال {لا تثريب عليكم اليوم} ٥.

و قيل: لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين ، والملائكة و الشياطين ، و الجن والإنس، و الأنعام و الطير ، و سِيَر الملوك و الممالك ، و التجار و العلماء و الجهال ، و الرجال والنساء ، و حِيَلِهن و مكرهن.

و فيها : ذكر التوحيد ، و الفقه ، و السير ، و تعبير الرؤيا ، و السياسة ، و المعاشرة ، و تدبير المعاش ، و جمل الفوائد التي تصلح للدين و الدنيا.

و قيل : لأن فيها ذكر الحبيب و المحبوب.

و قيل : لأن كل من ذكر فيها كان مآله السعادة ، انظر إلى يوسف و أبيه وإخوته وامرأة العزيز ، قيل : و الملك أيضا أسلم بيوسف و حسن إسلامه ، و مستعبر الرؤيا الساقي ، و الشاهد فيما يقال.

فما كان أمر الجميع إلا إلى خير[١].

---

[١] النساء ٨٧
[٢] النساء ١٢٢
٣ـ الاسراء ٩
٤ ـ انظر : القرطبي ١٢٠/٩
٥ ـ يوسف ٩٢

***
***

و لأن القصص القرآني :
تعليم للجاهل ..!!
و تنبيه للغافل ..!!
و تثبيت للعاقل ..!!
و دعوة للاعتبار ..!!
و أسلوب للتعليم ..!!
و عرض لمباهج هذا الدين ..!!
و طريق موصل لاقتِفَاء و اتباع آثار {الذين أنعم الله عليهم من النبيين و الصديقين الشهداء و الصالحين و حسن أولئك رفيقا}[2] و قدوة ، و مثلا أعلى يُحْتَذَى و يُتَّبَع...!!
فتعالوا بنا {يا أيها الذين آمنوا} إلى أحسن القصص ، إلى قصة يوسف عليه السلام.

***

الفصل الأول

(إن الشيطان للإنسان عدو مبين)

---

[1] القرطبي ١٢٠/٩
[2] النساء ٦٩

(من الآية رقم ٤ إلى نهاية الآية رقم ٢٠)

(١)المشهد الأول .. (قال يوسف لأبيه)

(٢) المشهد الثانى ..(اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا)

(٣) المشهد الثالث.. (وجاؤا أباهم عشاء يبكون)

(٤) المشهد الرابع .. (وَشَرَوْه بثمن بَخْسٍ)

المشهد الأول

(من الآية ٤ إلى نهاية الآية ٦)
(قال يوسف لأبيه)

(أ) مضمون المشهد.

آيات هذا المشهد تحتوي على
حـوار بين ا بن وأ بيه ، فيه نموذج
الأدب الرفيع ،والشفقة الحـــــانية ،
والـحكمة ا لبـالغـة،والوصـية النـافعة
والبشـــارة المُؤْنِسَة ، والتحذير من
الشيطان ، ثم رد الفضـل إلى صاحبـه ،
وهو الله سبحانه وتعالى .

(أ)آيات هذا المشهد.

يقول الله تعالى :

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾

(ج)التفسير .. والدروس التَّرْبَوية .

هذه الآيات الكريمة .. أيها الاخوة والأخوات في الله .. تُصَوِّر المشهد الأول من الفصل الأول من فصول قصة يوسف عليه السلام.

و فيها : يقول الله تعالى لمحمد ρ ، و اذكر لقومك المكذبين لك عسى أن تخشع قلوبهم فيؤمنوا لما جئت به ، و اذكر لأتباعك و محبيك ليزدادوا إيمانا على إيمانهم ، و ينتفعوا بما جئت به ، وهو في ذات الوقت : أمرلكل من يصح منه التذكر ، وينتفع به .

و المعنى : و اذكر {إذ} وقت أن {قال يوسف} عليه السلام {لأبيه} بعد أن رأى ما رأى في منامه {يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا و الشمس و القمر} و كأن أباه قال له : كيف رأيتهم ، فقال {رأيتهم لي ساجدين} أي طائعين.

وهنا نقف مع هذه الدروس التربوية:

الدرس الأول : وهوأدب الحديث مع الوالدين.١

حيث يقول {يا أبت}

و ذلك : أدب رفيع ، يحثنا عليه ، و يعلمنا إياه القرآن الكريم ، لننال مرضاة الوالدين فنصل إلى مرضاة الله تعالى.

وقد تكرر في القرآن ، ثماني مرات ؛ لبيان أهميته ولفت الأنظار للتحلي به ..!!

يقول إبراهيم عليه السلام لوالده :

{يا أبت لم تعبد ما لا يسمع و لا يبصر و لا يغني عنك شيئا ❋ يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا ❋ يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا ❋ يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان و ليا} ٢.

و يقول إسماعيل عليه السلام لوالده :

{يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين} ٣.

و يقول يوسف عليه السلام :

{يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا ...}

{يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل ...}

و تقول ابنة شعيب عليه السلام :

{يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين} ٤

و إذا كان هذا في الكلام ..!! فهو في الفعل و السلوك أولى و أولى.

الدرس الثاني : وهو تكريم الوالدين ، و جعلهما في مكانة تليق بهما.٥
حيث لم يقل (إني رأيت ثلاثة عشر كوكبا) حسب المجموع الحقيقي لما رآه ، بل قال {أحد عشر كوكبا و الشمس و القمر رأيتهم لي ...} الآية.
إذ فصل بين الكواكب الأحد عشر ، و هم الإخوة ، و الشمس و القمر ، و هما والديه.

---

(١) الدرس رقم ٨ (٣) الصافآت ١٠٢ (٥) الدرس رقم ٩
(٢) مريم ٤٢-٤٥ (٤) القصص ٢٦

و هنا أدرك يعقوب عليه السلام شأن ابنه يوسف ، و ماذا سيكون مستقبله ، بناء على معرفته بتأويل هذه الرؤيا ، التي أنعم الله عليه بها و فيها.
كما أدرك عليه السلام : أن هذه البشارة بهذه النعمة ستكون سببا في المشاكل ، و إثارة عوامل الغيرة و الحقد في نفوس إخوته ..!!
طالبه بإخفاء هذه النعمة ، و عدم الحديث عنها ، خاصة مع إخوته ، حتى لا يكيدوا له كيدا ، و يمكروا به شرا ..!
إذ قال له {يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا}
وهنا تبدو هذه الدروس التربوية :

(الدرس الأول) وهو : حنو الوالد على ولده. ١

حيث قال يعقوب عليه السلام {يا بني}
و هو أدب رفيع ، وتربية حانية ، و شفقة عالية - و النحاة يسمون هذا التصغير : تصغير التحبيب٢- يعلمنا إياه القرآن الكريم ، لنقترب من أولادنا ، فيستمعون إلينا ، ويأخذون عنا ؛ فتحسن تربيتهم ، و ترتقي نشأتهم ، و ينعدم انحرافهم ، و يصيروا نافعين لأهليهم و أوطانهم.
وقد تكرر هذا الفظ في القرآن الكريم ست مرات : لبيان أهميته ، ولفت الأنظار للتحلي به

يقول إبراهيم عليه السلام لولده :{يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى}٣
و يقول نوح عليه السلام لولده:{يا بني اركب معنا و لا تكن مع الكافرين} ٤

---

(١) الدرس رقم ١٠
(٢) روح المعاني : للآلوسي ١٨٠/١٢ (٣) الصافات ١٠٥
(٤) هود ٤٢

و يقول لقمان لابنه و هو يعظه :
{يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم}[١]
{يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله}[٢]
{يا بني أقم الصلاة و أمر بالمعروف و انه عن المنكر و اصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور}[٣].
و هنا ..
يقول يعقوب عليه السلام لولده :
{يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا}[٤].

(الدرس الثاني) وهو الأمر بكتمان النعمة وجواز إخفائها حتى توجد وتظهر.٥
حيث يقول {لا تقصص رؤياك على إخوتك}.
إذ إن محتوى هذه الرؤيا نعمة من الله تعالى على يوسف عليه السلام ، كما سوف يظهر من تأويلها في نهاية السورة٦.

---

[١] لقمان ١٣
[٢] لقمان ١٦
[٣] لقمان ١٧
٤ يوسف ٥

(٥) الدرس رقم ١١
(٦) ا بن كثير سورة يوسف تفسير الآية رقم ٥
(٧) الدرس رقم ١٢
(٨) المرجع السابق (٩) الدرس رقم ١٣

و في الحديث : "استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان ، فإن كل ذي نعمة محسود".

الدرس الثالث٧ : وهوجواز أن يُحَذِّر المسلم أخاه المسلم مما يخافه عليه ، و لا يكون ذلك داخلا في معنى الغِيبة٨.
حيث إن يعقوب عليه السلام قد حذَّر يوسف أن يقص رؤياه على إخوته ، موضحا السبب في هذا التحذير بقوله {فيكيدوا لك كيدا}.

الدرس الرابع : وهو عدم قص الرؤيا على غير شفيق و لا ناصح ، و لا على من لا يحسن تأويل الرؤيا.٩

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : "لم يبق من النبوة إلا المبشرات" قالوا : و ما المبشرات ؟ قال : "الرؤيا الصالحة".
و في الحديث : "الرؤيا جزء من ستة و أربعين جزءا من النبوة"
و في الحديث كذلك : الرؤيا معلقة برجل طائر ما لم يحدث بها صاحبها ، فإذا حدث بها : وقعت ، فلا تحدثوا بها إلا عاقلا ، أو محبا ، أو ناصحا"[1]

***

و لأن الأمر الطبيعي أن لا يكون بين الإخوة هذا التحاسد : فقد سارع ببيان السبب في وجود ذلك حين يوجد .. إذ قال :{إن الشيطان للإنسان عدو مبين}
حيث إن هذه العداوة قد تمت منذ أن قال المولى للملائكة {اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى و استكبر و كان من الكافرين}[2].
كما أن هذه العداوة دائمة و متجددة و متلونة ، منذ أن قال إبليس {.. فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ۞ ثم لآتينهم من بين أيديهم و من خلفهم و عن أيمانهم و عن شمائلهم و لا تجد أكثرهم شاكرين}[3].

---

[1]- أخرجه الترمذي و قال : حديث حسن صحيح (٤) الدرس رقم ١٤
[2]- البقرة ٣٤
[3]- الأعراف ١٦ ، ١٧

الدرس الخامس : ٤ وهو.. وجوب التحذير من الشيطان ، و الحذر الدائم منه ، و من كيده ، و بيان أن عداوته مؤكدة و مستمرة و دائمة ، و هو يبث سمومه بين الناس جميعا بصفة عامة ، و بين الأهل و الأقارب بصفة خاصة.

و هو سبب مباشر و عنصر فعال : فيما يقع للناس من ابتلاء ، و فيما يقع بين الناس من عداوات.

***

و بعد أن نصح يعقوب عليه السلام ابنه الحبيب ، و حذره : بشره.

حيث قال له معددا لنعم الله عليه في المستقبل القريب :

{و كذلك} أي و مثل هذا الإنعام و البشارة بهذه الرؤيا الحسنة ، ينعم عليك ربك يا بنيّ بنعم أخرى ، حيث :

{يجتبيك ربك} أي : يختارك ، و يصطفيك لنبوته[1].

{و يعلمك من تأويل الأحاديث} أي : أحاديث الأمم ، و الكتب و دلائل التوحيد [2] ، وتأويل الرؤيا.

{و يتم نعمته عليك و على آل يعقوب} أي : بالنبوة ، و إنجائك من كل مكروه[3].

و ليس هذا الأمر على الله تعالى بعزيز : فهو سوف يتم نعمته عليك و على آل يعقوب ، تماما {كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم و إسحق}.

و اعلم جيدا يا بني ، و استحضر في ذهنك و قلبك دائما علم الله الواسع المحيط ، وحكمته التامة حيث {إن ربك عليم} بما يعطيك ، و ينعم به عليك {حكيم} فيما يفعله بك ، ويفعله لك.

و هذه التوجيهات الأبوية ، و البشارات النبوية : صادرة من والد موصول بالله تعالى و نبي يوحى إليه؛ كما هو واضح

إخوتي الكرام : ننتقل سويا إلي المشهد التالي .

---

[1] ابن كثير : يوسف الآية ٦

[2] القرطبي ١٢٩/٩

[3] القرطبي ١٢٩/٩

***

المشهد الثانى

(اقتلوا يوسف أو إطرحوه أرضا)

(من الأية ٧إلى الآية ١٠)

(أ) مضمون هذا المشهد

وآيات هذا المشهد : تحتوي على لفت الأنظار ، والدعوة إلى الاعتبار بما كان من الإخوة ، الذين دَبَّت في قلوبهم الغيرة ، واشتعلت فيها الأحقاد ، على أخيهم الصغير ، الذي يُفْتَرض فيهم الحب له ، والخوف عليه ، والرعاية لأحواله ، ولكنه الشيطان (إن الشيطان للإنسان عدو مبين) والذي كان من كيده في هذا المشهد ما كان .

وكأني بآيات هذا المشهد تحذر عموم الناس من كيد الشيطان ، ومن نوازع الشر تتغلب عليهم ، وهي في ذات الوقت : تنبههم إلى أنه لا ينجو من ذلك إلا من : لجأ إلى الله ، واحتمى به ، وعمل بشرعه ، واقتدى بأنبيائه ، وإلا فهو واقع في وَهْدَة هذه النزوات والنزغات ، حتى ولو كان هو ابن مَن ، قياسا على إخوة يوسف هؤلاء .

(ب) آيات هذا المشهد.

يقول تعالى :

۞لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَـٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَـٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿١٠﴾

(ج)التفسير.. والدروس التربوية :

في هذه الآيات الكريمة ، يخبر رب العزة أن في قصة يوسف عليه السلام وإخوته :آيات وعبر للذين سألوا محمدا صلى الله عليه وسلم عن خبريوسف عليه السلام ، كما هي لغيرهم كذلك .
و قد انصرف عنها ، و لم يستفد بها من عمي قلبه عن الحق ، و أفاد منها ، و ازداد إيمانا من وفقه الله للحق ، وأنار بصيرته بها.
{لقد كان في يوسف و إخوته آيات للسائلين}
و ما تزال هذه الآيات و المواعظ و العبر في هذه القصة : باقية و نافعة ، لكل من أراد الهداية ، و بحث عن الحق و النور ، إلى يوم القيامة.

ويبدو هنا : هذا الدرس التربوي ١.

إذا كان في قصة يوسف ، كما في قصص القرآن عموما : آيات و عبر و مواعظ ، لمن أراد الاسترشاد و الهداية ؛ فعلى من أراد الخبرة و دراسة التجربة ، أن يدرس قصص القرآن ، استجلاء لمحتواه ، و إفادة من مغزاه ، و استزادة في إيمانه ، و توسيعا لمداركه ، و تطهيرا لِوُجْدانه ، و زادا له في دعوته.

***

١ـ الدرس رقم ١٥

ثم شرع ربنا في تفصيل هذه القصة.
حيث يبين بذور الحقد و أسباب العداوة التي زرعها الشيطان بين الإخوة {إذ قالوا ليوسف و أخوه أحب إلى أبينا منا}.
و لقد لفت نظرهم هذا الحب الأبوي ليوسف و أخيه ، و لم يلفت نظرهم أسباب هذا الحب و دواعيه ...!
و لو أنصفوا أنفسهم و أخويهم و أباهم : لفعلوا ما يجلب لهم حب أبيهم لهم ، بدلا من التفكير في إفساد جو هذا الحب ، و الانتقام من أهله ، و لكنهم اغتروا بكثرتهم و قوتهم في مواجهة هؤلاء الثلاثة : الوالد الكبير ، و يوسف الصغير ، و شقيقه الوحيد ، و لذا قالوا {و نحن عصبة} فالأولى أن يلتفت إلينا ، و أن ينشغل بنا ، و لكنه أخطأ التقدير ، و جانبه صواب التدبير ، حيث آثر اثنين فقط على عشرة من أولاده {إن أبانا لفي ضلال} أي بَعُدَ عن حسن التصرف {مبين} أي واضح لكل ذي عينين.

ويبدو هنا هذا الدرس التربوي ١
أهل الباطل لا يحبون إلا أنفسهم ، و لا يرون إلا ذواتهم و مصالحهم و مشاريعهم و أفكارهم و مبادئهم.
و لذا .. فهم لا يرون لأهل الحق حقا في الحياة ، و لا يرون لأهل المبادئ و الخير مكانا بجوارهم.
و من هنا .. فإنهم يخططون للخلاص منهم .. إما بالتصفية الجسدية لهم ، أو بحرمانهم من الحرية في التصرف و الاعتقاد ، أو بتجفيف المنابع أمامهم.
أملا في أن يخلو لهم الجو ، و تصفو لهم الحياة ، و تطيب لهم اللذائذ.
قالوا : إذا فعلتم ذلك بأهل الحق {يخل لكم وجه أبيك و تكونوا من بعده قوما صالحين}.
و قديما قال زعيم منهم ؛ لما خلا له الجو {أليس لي ملك مصر و هذه الأنهار تجري من تحتي} ٢ ؟
بل وصل به الأمر أن قال {ما أريكم إلا ما أرى و ما أهديكم إلا سبيل الرشاد}.
و قد خطط أخوة يوسف للتصفية الجسدية {اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا} كما خطط فرعون مصر للحرمان من الحرية {أليس لي ملك مصر} ؟

و مارس تجفيف المنابع {ما أريكم إلا ما أرى و ما أهديكم إلا سبيل الرشاد} ٣.

١ـ الدرس رقم ١٦ ٢ ـ الزخرف ٥١ ٣ـ غافر ٢٩

و لم يكتف إخوة يوسف بسوء فهمهم هذا ، و خطأ حكمهم فيما فهموه ، و تطاولهم على أبيهم بما قالوه ..!!

بل بدؤوا في تحويل الحقد و الحسد من مشاعر فقط إلى سلوك و تصرفات.

إذ شرعوا في التخطيط للخلاص من يوسف هذا ، الذي سكن حبُّه قلبَ أبيه ، و سكن الحسدُ له قلوبَهم.

فقد قالوا : {اقتلوا يوسف} و هذا خلاص منه بإنهائه من الوجود أصلا {أو اطرحوه أرضا} و هذا خلاص منه بإبعاده في الأرض و المكان عن أبيه ، و قد يكون مصيره بعد هذا النفي هو الهلاك نفسه.

فإذا فعلتم ذلك {يخل لكم} أي يخلص و يصفو لكم وحدكم {وجه أبيكم} و حبه واهتمامه بكم ، فيقبل عليكم ، و لا ينشغل عنكم ، {و تكونوا من بعده} أي من بعد ذلك الفعل الذي يُبْعِدُ يوسف عن أبيه و عنكم {قوما صالحين} أي صالحي الشأن مقربين ، عند أبيكم ، من غير منازعة أحد لكم في حبه ، و من غير تفضيل منه لغيركم عنده.

و لكن اقتراح القتل ، و كذلك : اقتراح الإبعاد عن الوالد ، و النفي في الأرض ، ليوسف .. لم يلق قبولا من بعضهم ، الذى كان مسموع الكلمة فيهم.

و يَبْدُو أنه كان أرقّ قلبا من مجموعهم ، بَيْدَ أنه لم يستطع إثناءهم عن عزمهم ..

حيث حاول صرفهم عن القتل ، أو النفي المؤدي للهلاك ، إلى ما هو أهون منه ، مما يبقي على حياته على نحو ما.

إذ {قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف و ألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين} إن كنتم عازمين على تنفيذ ما تقولون.

ويبدو هنا الدرس التربوي ١

أن من رأى منكرا فعليه بتغييره ، كله إن استطاع ، أو بعضه إن لم يكن في مقدوره غير ذلك ، فإن لم يقدر لا على هذا و لا على هذا : فلينكر بقلبه ، و لا يشارك في التنفيذ.

و يكون قد أعذر إلى الله تعالى ، و أبرأ ذمته ، و غير قدر استطاعته.

{قال قائل منهم : لا تقتلوا يوسف و ألقوه في غيابة الجب}.

و قريب من هذا حديث النبي صلى الله عليه وسلم :

"انصر أخاك ظالما أو مظلوما.

قالوا : هذا المظلوم .. فكيف ننصر الظالم ؟

١ـ الدرس رقم ١٧

قال : تمنعه من ظلمه".
و المنع يكون لجميع الظلم ، أو لبعض الظلم ، حسب الاستطاعة.
و لو سكت القادرون على رد الظلم عن رده، أوعن رد بعض هذا الظلم : لهلك الجميع ، مِصْداقا لقوله تعالى {و اتقوا فتنة لا تصيب الذين ظلموا منكم خاصة} ١.
و لأن الله تعالى .. كان يريد من يوسف ، و يريد بيوسف أمرا لا بد من إتمامه : فقد صرفهم عن اقتراحاتهم ، و حبب إليهم إلقاءه في الجب.

ويبدو هنا الدرس التربوي ٢
أهل الباطل يجتمعون و يتدارسون و يخططون و يتعاونون على تنفيذ باطلهم وشرورهم و اقتراحاتهم.
فأولى بأهل الحق أن يكونوا سباقين في الدراسة و التخطيط لنشر الحق ، جادين في التعاون على تنفيذ البر ، و الالتزام بالتقوى مناصرة للحق ، و إعلاء لشأنه ، و بسطا لنفوذه ، ورفعا لراية هذا الدين ، و إسعادا لأهله ، و إصلاحا لبلاده.
و بعد ..
فأقول : لما وصل إخوة يوسف إلى اقتراح الإلقاء له في الجب ، و استراحوا إليه ، واتفقوا عليه .. انتقلوا إلى مرحلة التنفيذ.
و هذه المرحلة : هي المشهد التالي .

***

١ـ الأنفال ٢٥
٢ـ الدرس رقم ١٨

المشهد الثالث

(وجاؤا أباهم عشاء يبكون)

(من الآية ١١ إلى الآية ١٨)

(أ) مضمون المشهد .

وآيات هذا المشهد : تحتوي على حوار بين والد وأولاده. . بين والد يحنو على ولده ، وأولاد يحقدون ـ بسبب هذا الحب ـ على هذا الولد .

في هذا الحوار : تخطيط خبيث لتنفيذ مؤامرة آثمة ، وسوس بها الشيطان .

ونفذت المؤامرة . . ! !

وتمت التغطية عليها بألوان من الكذب .

ولكن الوالد استعان على وقع هذه المحنة وآلامها بالله تعالى ، وتحلى في مواجهتها بالصبر الجميل .

وكأني بهذا المشهد . . يعلمنا أن المحن والابتلاءات سنة ماضية ، وأن حسن مواجهتها سمة الأخيار .

(ب) آيات المشهد .

يقول تعالى :

قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرۡسِلۡهُ
مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن
تَذۡهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَـٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنۡ
أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ
وَأَجۡمَعُوٓا۟ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَـٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ
هَـٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ﴿١٦﴾
قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ
وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ
كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ
عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

(ج) التفسير.. والدروس التربوية

لا حول و لا قوة إلا بالله....!!!!

لقد وقع المحظور ، و ألقى إخوة يوسف به في غيابة الجب ، و انتصر الشيطان ؛ حيث زين لهم فعلتهم ، و ما زال يغويهم بها حتى نفذوها...!

و لأنهم كانوا يخشون رفض أبيهم ، و يخافون من حرصه على يوسف أن يحول بينهم و بين فعلتهم:

فقد تحايلوا عليه.

و {قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف} أي : و نحن إخوته نحبه ، و نحب له الخير ، و نحب أن يلعب معنا ، و أن يمرح بيننا.

{و إنا له لناصحون} أي حريصون على رعايته و مصلحته و صيانته.

ثم أضافوا قائلين له :

{أرسله معنا غدا يرتع و يلعب و إنا له لحافظون} من كل مكروه تخاف منه عليه.

وهنا تبدو هذه الدروس التربوية :

الدرس الأول ١

أن أهل الشر لهم قوة في الإقناع ، و قدرة على تزيين الباطل ، و إصرار في الوصول إلى ما يريدون.

انظر إلى نقاش إخوة يوسف مع أبيهم من أجل أخذه منهم ؛ لإهلاكه .

الدرس الثاني ٢

أن أهل الباطل يقسمون ، و هم واثقون أنهم من الكاذبين ، {و إنا له لناصحون} {و إنا له لحافظون}.

و قد أجابهم على طلبهم هذا ـ بكل وضوح منه ـ على النحو التالي :

أولا : {قال إني ليحزنني أن تذهبوا به} أي : يشق عليَّ مفارقته ، و البعد عنه مدة ذهابكم به إلى أن يرجع.

و ذلك : لفرط محبته له ، و لما يتوسم فيه من الخير العظيم و شمائل النبوة ، و الكمال في الخلق و الخلق ، صلوات الله و سلامه عليه.

---

١ ـ الدرس رقم ١٩ ٢ ـ الدرس (٢٠)

ثانيا : {وأخاف أن يأكله الذئب و أنتم عنه غافلون}.

الدرس الثالث ١ :
أن الداعية ينبغي أن يكون واضحا في قبوله للشيء أو رفضه له ، مبديا أسباب هذا أو ذاك ؛ لأنه قدوة ، و القدوة يكون واضحا و قويا في عرض مبادئه ، أو رفضه للمبادئ الضارة.
{قال إني ليحزنني أن تذهبوا به و أخاف أن يأكله الذئب و أنتم عنه غافلون}

* * *

هذا ..
و قد أضربوا في ردهم عليه عن السبب الأول ؛ حيث إنه الدافع الأول لعملهم الذي ينوون ، و جرمهم الذي سوف يرتكبون.
و اكتفوا بقولهم ردا على السبب الثاني {لئن أكله الذئب و نحن عصبة إنا إذا لخاسرون} أي هالكون عاجزون ٢.
و لكنهم مع ذلك : أخذوا هذه الكلمة من فمه ، و أضمروها في نفوسهم ، و جعلوها عذرهم - بعد ذلك- فيما فعلوه.
و مع كل هذا ...
أخذوه {فلما ذهبوا به} بعيدا عن أبيه ، و هم يظهرون إكرام يوسف ، بسطا و شرحا لصدر أبيهم ، و إدخالا للسرور عليه ، و هذا في ظاهر الأمر حتى لا يشك فيهم ، و يمنعه منهم : ولكن ما أن ابتعدواعن أبيهم ، حتى أخذوا في إظهار الأذى ليوسف ، بالقول من شتم و نحوه ، و الفعل من ضرب و نحوه.
{و أجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب} فقد اتفقوا جميعا على إلقائه ، ثم جاءوا به إلى ذلك الجب و ربطوه بحبل ، و دلوه فيه ، فسقط في الماء ، فغمره ، فصعد إلى صخرة تكون في وسطه فقام عليها.
و في هذا الجو الرهيب ، و بعد هذا الفعل العصيب : لم يتخل الله تعالى عنه ، حيث لطف به ، و رحمه ، و طيب في هذا الضيق قلبه ، و ثبت في الحال فؤاده.
و طالبه : أن لا يحزن مما هو فيه ، حيث إن له من ذلك فرجا و مخرجا حسنا ، وبشره : أن الله سينصره عليهم و يعليه ، و يرفع درجته ، كما أعلمه أنه سيخبرهم - في يوم ما- بهذا الذي فعلوه معه.

---

١ - الدرس رقم ٢١ ٢ - سورة يوسف الآية ١٤

إذ يقول تعالى : {و أوحينا إليه لتنبأنهم بأمرهم هذا و هم لا يشعرون} بإيحاء الله إليك ، و إنعامه بك ، و أنك ستخبرهم - في يوم ما- عن صنيعهم هذا في حقك ، و هم لا يعرفونك.

روي : أن جبريل نزل إليه في البئر يُؤْنِسُه ، فلما أمسى نهض ليذهب ، قال له : إني أستوحش إذا ذهبت .. فقال : إذا رُمْتَ شيئا فقل :

"يا صريخ المستصرخين ..!!

و يا غوث المستغيثين ..!!

و يا مفرج المكروبين ..!!

ترى مكاني ، و تعلم حالي ، و لا يخفى عليك شيء من أمري"

فلما قالها يوسف : حفته الملائكة عليهم السلام ، و استأنس بهم ١.

كما روي عن ابن عمر أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما ألقي يوسف في الجب : أتاه جبريل عليه السلام ، فقال : يا غلام من ألقاك في هذا الجب ..؟ قال : إخوتي ، قال : و لم ..؟ قال : لمودة أبي إياي حسدوني .. قال : تريد الخروج من هاهنا ..؟ قال : ذاك إلى إله يعقوب ، قال : قل اللهم إني أسألك باسمك المكنون المخزون ، يا بديع السماوات و الأرض ، يا ذا الجلال و الإكرام ، أن تغفر لي و ترحمني ، و أن تجعل من أمري فرجا و مخرجا ، و أن ترزقني من حيث أحتسب و من حيث لا أحتسب.

فقاله .. فجعل الله تعالى له من أمره فرجا و مخرجا ، و رزقه ملك مصر من حيث لا يحتسب ٢.

وهنا يبدو هذا الدرس التربوي ٣ .

أن الله تعالى لا يتخلى عن أوليائه و أحبابه ، حيث يكون معهم في شدتهم و أزماتهم.

يقول تعالى {و أوحينا إليه لتنبأنهم بأمرهم هذا و هم لا يشعرون}.

و في هذا تثبيت لقلبه ، و تطمين لفؤاده ، و بشارة له بطول العمر ، و العلو ، والتمكين.

* * *

و بعد أن فعلوا فعلتهم ، و ارتكبوا جريمتهم ، أشفعوها بجريمة أخرى ، و هي الكذب على أبيهم.

فقد {جاءوا أباهم عشاء يبكون} أي متباكين ، يظهرون البكاء بتكلف ، لأنه لم يكن عن حزن.

١ـ تفسير روح المعاني للآلوسي ١٩٧/١٢ ط إدارة الطباعة المنيرية مصر

٢ـ نفس المرجع ، ونفس الموضع .　　　　٣ـ الدرس رقم (٢٢)

وهنا تبدو هذه الدروس :

الدرس الأول ١
الحسد حقيقة موجودة ..
قيل للحسن : أيحسد المؤمن ..؟
قال : ما أنساك ببني يعقوب ٢

الدرس الثاني ٣
أن الكاذب يتفنن في تمثيل الصدق ، ليصل إلى إقناع من يكذبه أنه صادق بشتى الوسائل .. حتى و لو بالبكاء.
حيث جاء إخوة يوسف إلى أبيهم عشاء ، في ظلمة الليل ، و بعد ارتكابهم فعلتهم الشنعاء : يبكون ، و كثيرا ما يفعل بعض الكذابين ذلك ٤.
أخرج ابن المنذر عن الشعبي قال : جاءت امرأة إلى شريح القاضي تخاصم في شيء ، فجعلت تبكي.
فقالوا : يا أبا أمية .. أما تراها تبكي ..؟
فقال : قد جاء إخوة يوسف أباهم عشاء يبكون ..!!
و لهذا ..
فليس كل باك صادق.
* * *
ثم {قالوا} معتذرين عما وقع ليوسف فيما زعموا {يا أبانا إنا ذهبنا نستبق} أي نتسابق {و تركنا يوسف عند متاعنا} أي ثيابنا و أمتعتنا {فأكله الذئب} و قالوا ذلك : لأن هذا هو الذي كان يتوقعه ، حتى يصدِّقهم.
ثم قالوا {و ما أنت بمؤمن لنا} أي بمصدق {و لو كنا صادقين} لأنك سيء الظن بنا ، غير واثق بقولنا ، لشدة محبتك ليوسف.
و لم يكتفوا بهذا القول و هذه الحجة في إقناع أبيهم ..
بل {جاءوا على قميصه} أي قميص يوسف {بدم كذب} ملفق لإقناع أبيهم بما كذبوه و اختلقوه.
و صُدِم يعقوب عليه السلام ..!!
و وقع ما كان يحذره و يخشاه ..!!
و لكن هل صدقهم فيما قالوا ..؟
لا .. و ألف لا .

١ ـ الدرس رقم (٢٣)   ٢ـالقرطبى ١٣٨/٩   ٣ ـ الدرس رقم(٢٤)   ٤ـ روح المعاني ١٩٩/١٢

و لذا أضرب عن كلامهم ، و انشغل بما وقع في نفسه من لبسهم عليه.

و {قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا} عظيما ارتكبتموه في حق أخيكم يوسف.

وهنا يبدو هذا الدرس التربوي (١) .
وهو : أن الثقة في وعد الله تعالى ينبغي أن تكون على درجة عالية من اليقين لا تقبل التشكيك أو الاهتزاز.
و لذلك قال يعقوب - فور سماع الخبر ، و المعرفة بسيل الدلائل المقدمة للإقناع بأن الذئب قد أكل يوسف- ما يفيد تكذيبه لهم ، و تصديقه لربه و ما وعد به ليوسف :
{بل سولت لكم أنفسكم أمرا}.

* * *

ثم حدد الطريق الذي يلجأ إليه في هذه الحال ، و الركن الذي يستند إليه في هذه الشدة.
حيث قال {فصبر جميل} إذ لا سبيل أمامي فى هذه المحنة ،إلا التحلي بالصبر الجميل ، الذي لا شكوى فيه إلى الخلق.
ثم قال {و الله المستعان على ما تصفون) من الكذب.

وهنا يبدو هذا الدرس التربوي الآخر(٢) .
وهو أن على المؤمن أن يحتمي بالله تعالى في الشدائد، وأن يتحلى بالصبر الجميل في المصائب و البلايا.
حيث يقول يعقوب {فصبر جميل و الله المستعان على ما تصفون}.
و الاحتماء بالله تعالى ، و الاستعانة به في السراء و الضراء : من علامات الإيمان.
و لذلك : لما وقع ما وقع ليوسف .. !! رأى أن الأصوب .. هو الصبر و السكوت و تفويض الأمر كلية لله تعالى.
وبالتحلي من يعقوب عليه السلام بالصبر والسكوت وتفويض الأمر لله تعالى ، أمام هذا الأمتحان العسير ، والابتلاء الشديد :
ينتهي هذا المشهد .
وننتقل إلى المشهد التالي .

١ـ الدرس رقم (٢٥)   ٢ـ الدرس رقم (٢٦)

المشهد الرابع

(وَشَرَوْهُ بثمن بَخْسٍ)

(الآيتان ١٩ ، ٢٠ فقط)

(أ) مضمون المشهد .

في آيات هذا المشهد : ضاع الغلام من أبيه ، وَبِيعَ الغلام ، وأُبْعِدَ عن أبيه .
وكان ذلك . . ليهلك الغلام ، ويَخْلُ لهم وجه أبيهم ، ويصفو لهم حبه . . ! !
فهل حدث ذلك . . ؟
لقد استعان الوالد الملهم بالله ، واحتمى بالصبر الجميل .
وأما الغلام : فقد أبعد عن أبيه، وعن إخوته و تلقفته يد القدر ، وحرسته عناية الله .
ولكن . . كيف . . ؟
الإجابة في مشهد آخر.

(ب) آيات المشهد .

يقول تعالى:

وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾

(ج) التفسير . . والدروس التربوية .

يا سبحان الله ..!!

ما خرج يوسف من محنة البئر إلا ليقع في محنة الرق.

إنه قَدَرُ الله تعالى ، و امتحانُه لنبيه يوسف عليه السلام ، و هو ما يزال شابا صغيرا.

و ظل يوسف في هذا البئر -على ما يقال- ثلاثة أيام.

{و جاءت سيارة} أي : رفقة من الناس ، يسيرون من جهة مدين إلى مصر.

{فأرسلوا واردهم} و هو الذي يرد الماء ، و يستقي لهم.

{فأدلى دلوه} أي : أرسل دلوه في البئر ليستخرج الماء ، فتعلق به يوسف عليه السلام ، و خرج من البئر.

و عن كعب الأحبار أنه قال : كان يوسف عليه السلام حسن الوجه ، جعد الشعر ، واسع العينين ، مستوي الخلق ، أبيض اللون ، غليظ الساعدين و الساقين ، خميص البطن ، صغير السرة.

و كان إذا تبسم : رأيت النور في ضواحكه ، و إن تكلم : رأيت شعاع النور من ثناياه ، و لا يستطيع أحد وصفه.

و كان حسنه كضوء النهار عند الليل.

و كان يشبه آدم عليه السلام يوم خلقه ، قبل أن يصيب الخطيئة.

و يحكى أن جوانب الجب بكت حين خرج منها.

أقول و عندما رآه الوارد[1] :

١- روح المعاني ٢٠٤/١٢

{قال يا بشرى هذا غلام} من فَرْط فرحه به ، و سعادته برؤياه.

{و أسروه بضاعة} أي : أخفى أمره وارد الماء و رفقته عن بقية السيارة ، و لم يخبروهم أنهم وجدوه في البئر ، بل قالوا دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر.

{و الله عليم بما يعملون} لم يخف عليه إسرارهم ، و فعلهم ، و هذا وعيد لإخوة يوسف - كما يقول بعض العلماء- على ما صنعوا بأبيهم ، و أخيهم ، و جعلهم إياه عرضة للابتذال بالبيع و الشراء.

❋❋❋

{و شروه بثمن بخس} أي باعوه بثمن ناقص نقصانا ظاهرا ، فوق أنهم ظلموه ببيعه ، و هو ثمن حرام أصلا.

{دراهم معدودة} أي : مبلغا قليلا.

{و كانوا فيه من الزاهدين} أي : كان الذين باعوه من الزاهدين فيه ، المتساهلين في بيعه ، لأنهم لم يعلموا نبوته ، و منزلته عند الله عز و جل.

و بيع يوسف ..!!!

و بدأت محنة جديدة ..

و فصل جديد في قصة هذا النبي الكريم.

و هو موضوع اللقاء القادم بإذن الله تعالى.

الفصل الثاني

(قال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه)

(من الآية رقم ٢١ إلى نهاية الآية رقم ٣٥)

(١) المشهد الأول (أكرمي مثواه)

(٢) المشهد الثاني (وراودته التي هو في بيتها عن نفسه)

(٣) المشهد الثالث (ما جزاء من أراد بأهلك سوءا)

(٤) المشهد الرابع (وقال نسوة في المدينة : . .)

(٥) المشهد الخامس (السجن أحب إلي مما يدعونني إليه)

المشهد الأول

(أكرمي مثواه)

(من الآية رقم ٢١ إلى نهاية الآية ٢٢)

(أ) مضمون المشهد .

وآيات هذا المشهد : توضح أن يوسف عليه السلام قد انتقل من أيدي بائعيه إلى رجل من أهل مصر، أوصى به زوجه ، رجاء أن ينفعه ، أو يتخذه ولدا ؛ حيث كان لا يَنْجِب .

وكانت هذه بداية الخير والتمكين ليوسف عليه السلام ، كما كانت بدايةجديدة فيالمحن والإبتلاء، والتكوين والإعداد له في رحلة التمكين ، ونشره لدعوة الخير، دعوة الإسلام.

(ب) آيات المشهد .

يقول تعالى :

وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

(ج) التفسير . . والدروس التربوية .

تفيد هاتان الآيتان الكريمتان :

أن يوسف عليه السلام : قد وصل إلى مصر ، و بيع بيع العبيد ، حتى وصل في رحلته، و خلال تنقله ، من مشتر إلى مشتر .. إلى أن وصل إلى من توسم فيه الخير ، و رأى في وجهه النور.

فإذا هو يوصي امرأته به خيرا.
(و قال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه)
الحمد لله . . !!!
بدأت الأزمة تنفرج ، وأخذت الأحوال تبتسم ليوسف عليه السلام ، ويبدو أن البلاء سينتهي .
فقد اشتراه من :
أوصى به امرأته خيرا ، و بالغ في وصيتها به ، حيث طلب منها أن تحسن في معاملته ، و أن تهتم به في أمور إقامته، و شئون حياته.
خاصة : و أنه توسم فيه الخير ، و تطلع إليه في تحقيق أمل كان يصبو إليه ، و هو أن يكون له ولد.
حيث قال {عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا} إذ لم يكن له ولد ، بسبب عدم الإنجاب.
و المراد من هذه الوصية : أسعديه غاية الإسعاد ، فإنا لا نريده عبدا ، بل نريده سندا و عونا ينفعنا ، أو ولدا نتبناه فيسعدنا.
و من هذه الوصية ندرك هذا الدرس التربوي الهام ١ : وهو أن الإكرام في المقام ، و السعادة في البيت ، و راحة البال لأفراد الأسرة : تكون من المرأة .
حيث يقول لها :{أكرمي مثواه}.
ولذا : يروى عن عبد الله بن مسعود أنه قال : أفرس الناس ثلاثة :
عزيز مصر .. حين قال لامرأته {أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا ..}
و ابنة شعيب .. حين قالت لأبيها {يا أبت استأجره ..}
و أبو بكر .. حين استخلف عمر بن الخطاب.
و هذا التغير في الأحوال : هو بداية تحقيق ما رآه يعقوب عليه السلام في ولده يوسف ، من : الاصطفاء الإلهي {و كذلك يجتبيك ربك}

١- الدرس رقم (٢٧)

و تَعَلُّم تأويل الأحاديث {و يعلمك من تأويل الأحاديث}
و إتمام النعمة {و يتم نعمته عليك و على آل يعقوب ..}
حيث يقول تعالى عن يوسف ، بعد استقراره في هذا البيت الذي أوصى صاحبه بتكريمه فيه {و كذلك مكنا ليوسف في الأرض}
أي : و بهذا الدخول في هذا البيت ، و بهذا التكريم الذي سيتربى في أجوائه : بدأت رحلة التمكين ليوسف في الأرض.

** *

و قد يظن البعض أن ما سيحدث ليوسف في هذا البيت يتعارض مع التمكين المشار إليه ، و الإعلاء المبشَّر به ..!!

و لكن ما يبدو للناس أمر ، و ما يقدر الله أمر آخر ، و لا يقع و لا يتم، إلا ما يقدره الله و يريده.

{و الله غالب على أمره} و إن رأى الناس في الظاهر غير ذلك.

و ذلك واضح غاية الوضوح في قصة يوسف عليه السلام :

فقد أمره أبوه ألا يقص رؤياه على إخوته ، حتى لا يكيدوا له كيدا .. فغلب أمر الله ، و كادوا له.

و ثانيا : أراد إخوته قتله .. فغلب أمر الله ، حتى صار ملكا ، و سجدوا بين يديه.

و ثالثا : أراد إخوته أن يخلو لهم وجه أبيهم .. فغلب أمر الله .. حتى ضاق عليهم قلب أبيهم ، و افتكره بعد سبعين أو ثمانين سنة ، و قال {يا أسفا على يوسف}.

و رابعا : أرادوا أن يخدعوا أباهم بالبكاء و القميص .. فغلب أمر الله ، و لم ينخدع ، و قال {بل سولت لكم أنفسكم أمرا}.

و خامسا : احتالوا أن تزول محبة يوسف من قلب أبيهم .. فغلب أمر الله ، و ازدادت المحبة و الشوق إليه.

و سادسا : دبرت امرأة العزيز أنها إن ابتدرته بالكلام و الاتهام غلبته .. فغلب أمر الله .. حتى قيل لها {استغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين}.

و سابعا : دبر يوسف أن يتخلص من السجن ، بذكر الساقي .. فغلب أمر الله ، و نسي الساقي ، و لبث في السجن بضع سنين.

و هكذا ..
قدر الله غالب.

وهذا درس تربوي ١ : ينبغي أن يكون واضحا جدا.

فإن الناس : يريدون ، و يدبرون ، و يجتهدون ، و قد يقع لهم غير ما أرادوا ، و هنا : يجب الرضا و التسليم.

حيث إنه لا يقع في ملك الله و لخلق الله إلا ما يريده سبحانه {و الله غالب على أمره}.

و مع أن هذا هو واقع الحال ، و هو واضح جدا :

{و لكن أكثر الناس لا يعلمون} أي : لا يدركون حكمته في خلقه ، و تلطفه بعباده ، و فعله لما يريد ، سبحانه و تعالى (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شرا لكم) ٢ .

❋❋❋

و يحيا يوسف في هذا الجو من التكريم و الرعاية ، و في هذا المكان الذي يكسبه الخبرة و التجربة ، و يفتح عينيه على أسرار البيوت التي تدار من جنباتها شئون البلاد .
مخلصا في خدمة البيت الذي آواه ، و السيد الذي أكرمه ، و الأهل الذين أحاطوه بعطفهم.
مخلصا -كذلك- في حق خالقه ، الذي من عليه بهذا التكريم ، و بهذه النعم ، و الذي نجاه من كيد إخوته .. حتى شب -كما يقولون- عن الطوق ، وبلغ أشده.
{و لما بلغ أشده} أي : استكمل عقله ، و تم خلقه ، و نضج فكره ، و كثرت خبرته ، و صار أهلا لحمل الأمانة : {آتيناه حكما و علما} أي : آتيناه صحة الحكم على الأمور و الفهم لها ، و كذلك آتيناه علما بمصائر الأحاديث و تأويل الرؤيا ، كما يمكن أن يقال : آتيناه علما بالحياة و أحوالها ، و حكما صحيحا على الناس و أمورها.
{و كذلك نجزي المحسنين} أي الذين يعملون بطاعة الله ، و يراقبونه دائما ، ويحرصون على مرضاته في كل حال.

* * *

١ـ الدرس رقم (٢٨)
٢ـ البقرة ٢١٦

و إلى هنا .. و قد يظن البعض أن المحن قد ابتعدت عن حياة يوسف عليه السلام ،وأن أيام البلاء قد ولّتْ عنه، و ابتعدت.
و أن الحياة سوف تصفو له ، و أن نعيمها سوف يَخِرُّ بين يديه ، خاصة في هذا القصر الفسيح ، و وسط هذه الطبقة الراقية الحاكمة.
لا .. و ألف لا.
فالدهر قلّب .. يوم لك و يوم عليك.
و الدنيا غدارة .. لا أمان لأحوالها.
فهي كما يقولون :
إن حَلَتْ : أوْحَلَتْ.
و إن كست : أوْكَسَتْ.

و إن أعطت : أخذت.
و إن بسطت : قبضت.
و إن بَشَّرَت : كدَّرت.
و إن فَرَّحَتْ : أَحْزَنَتْ.
نعم .. لا أمان لأحوالها.
و لا نجاة من غدرها .. إلا بمعرفة الله و طاعته.
أقول :
نجا يوسف عليه السلام من كيد إخوته ، ومن غيابة الجب ، ومن سوء معاملة تجار الرقيق ، ليقع في محنة أشد و أنكى.
و لا حول و لا قوة إلا بالله.
محنة .. أطرافها :
الجو الذي يحيا فيه.
و الترف الذي يحيط به.
و شبابه الذي لفت النظر إليه.
و جماله الذي حَبَاه الله به.
و نشأته في هذا البيت : الذي لا يعرف أهلهُ حُرْمَةً لدين ، و لا خوفا من خالق.
سيدة ترقب نموه و فتوته و جماله ، و يغالبها سعار لا ترده ، و شهوة لا تقاومها.
و سيد لا يغار على أهله ، و لا يلتزم ، و لا يُلْزِمُ بيته بضوابط من شرع أو دين.
و لكن هل أُدْخِلَ يوسف هذه المحنة بغير سلاح.!!!؟

أكاد أستشعر أن الله تعالى ما تركه ليدخل هذا الامتحان الصعب الآتي ، أو هذه المحنة العاتية ، إلا و قد أَهَّلَه لمواجهتها ، حيث يقول {و لما بلغ أشده آتيناه حكما و علما} بهما يواجه المحن ، و يفوز في الاختبارات ، و يجتاز أصعب الامتحانات ، خاصة أن الذي آتاه ذلك هو المولى عز و جل.

❋❋❋

و بهذا التكوين ..
و بهذه النشأة ..
و في هذا الجو ..
و وسط هذه البيئة ..
تبدأ عواصف المحنة القاسية على حياة سيدنا يوسف عليه السلام.

فما هذه المحنة ..؟
و ماذا حدث فيها ..؟
و كيف واجهها ..؟
كل هذا ما تجيب عنه آيات المشهد التالي من هذا الفصل الثاني.

المشهد الثاني

(وراودته التي هو في بيتها عن نفسه)

(الآيتان ٢٣ ، ٢٤ فقط)

(أ) مضمون المشهد .

آيات هذا المشهد : تصور لحظة الانفجار ، لعاطفة تأجَّجَ أُوَارُها ، واشتعل لهيبها وطالت مغالبتها .

وهو امتحان رهيب ، وموقف عصيب : لا ينجح فيه إلا من غالب نفسه وهواها ، وقوى ارتباطه بالله ؛ فهداها .

وهو مشهد ملئ بالانفعالات ، مصوِّر لأسرار البيوتات ، كاشف عن حماية الله لعباده الصالحين.

(ب) آيات المشهد:

يقول تعالى

وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾

(ج) التفسير . . والدروس التربوية .

تحكي آيات هذا المشهد: لحظات الانفجار التي وصلت إليها امرأة العزيز ، و عصفت بها ..
و لكن تعالوا بنا إلى ما قبل هذه اللحظات.
إن السياق -أي سياق الآيات- لم يذكر كم كانت سنها ، و كم كانت سنه ..؟
فلننظر في هذا الأمر من باب التقدير كما يقول الأستاذ سيد قطب ١ :
لقد كان يوسف "غلاما" عندما التقطه السيارة و باعته في مصر ، أي في حوالي الرابعة عشرة تنقص و لا تزيد ، إذ هذه هي السن التي يطلق فيها لفظ الغلام ، و بعدها فتى فشابا فرجلا.
و في هذا الوقت كانت هي زوجة.
و هي و زوجها لم يرزقا بأولاد.
و المتوقع ألا تقل سن زوجها عن أربعين عاما .. و أن تكون زوجته - حينئذ- في حوالي الثلاثين.
و عندما وقعت هذه الحادثة :

١- الظلال ١٢/ ١٩٧٩

نتوقع - كما يقول شهيد الإسلام- أن تكون سنها أربعين سنة ، و أن تكون سن يوسف عليه السلام في الخامسة و العشرين ، أو حواليها.
و نرجح ذلك : لأن تصرف المرأة في الحادثة و ما بعدها يشير إلى أنها كانت مكتملة جريئة ، مالكة لأمرها و كيدها ، متهالك كذلك على فتاها.
و مسألة تقدير السن هذه تقودنا إلى أمر في غاية الأهمية : و هو أن المحنة لم تكن في قضية المراودة هذه فقط.
بل إنها بدأت منذ دخوله القصر ، و خلال هذه الفترة الحرجة في حياة الإنسان ، فترة الاكتمال و النضوج و البلوغ ، و التي يسمونها بفترة المراهقة ، و هي تقريبا : عشر سنوات.
و التي عاشها في جو هذا القصر.
مع هذه المرأة ، التي تعيش هذا السن الخطير ، ما بين الثلاثين و الأربعين من العمر.
و في هذه البيئة ، التي لا حشمة فيها من المرأة ، و لا رادع لها عن رغبة ، و لا ضوابط من شرع ، و لا غَيْرَةً من زوج.

و على هذا النحو من المخالطة : هي و هو في بيت واحد ، تحت سقف واحد ، طيلة الوقت ، و خلال هذه المدة الطويلة ، الخطيرة.
إذن : فالمسألة جد خطيرة.
و هي قديمة ، لم تبدأ من الآن ، و إن كانت قد انفجرت الآن.
و هذا الخبر يصور جانبا من هذه الفتنة و المحنة ، قبل أن تقع الكارثة الأخيرة ، والفضيحة المدوية.
يقول الخبر ، الذي يذكره الإمام القرطبي ، و يصور بعض ما كان يدور بينهما :
قالت له : يا يوسف ..!! ما أحسن صورة وجهك ..!!؟
قال : في الرحم صورني ربي.
قالت : يا يوسف ..!! ما أحسن شعرك ..!!؟
قال : هو أول شيء يبلى مني في قبري.
قالت : يا يوسف ..!! ما أحسن عينيك ..!!؟
قال بهما أنظر إلى ربي.
قالت : يا يوسف ..!! ارفع بصرك فانظر في وجهي.
قال : إني أخاف العمى في آخرتي.
قالت : يا يوسف ..!! أدْنُو منك و تتباعد مني ..!!؟

قال : أريد بذلك القرب من ربي.
قالت : المخدع فرشته لك فادخل معي.
قال : المخدع لا يسترني من ربي.
قالت : يا يوسف ..!! فراش الحرير فرشته لك ، قم فاقض حاجتي.
قال : إذا يذهب نصيبي من الجنة.
يقول الإمام القرطبي : إلى غير ذلك من كلامها ، و هو يراجعها ١ .
و هذا الخبر إن صح - فيما أرى- يصور جانبا من الحوارات و الإغراءات التي تعرض لها يوسف عليه السلام خلال هذه الفترة الحرجة و الهامة من حياته.
و من هنا : يحكي هذا المشهد.. نهاية موقف طويل من الإغراء ، بعد ما أبى يوسف في أول الأمر ، و طوال المدة و استعصم.
نعم .. يحكي لحظة الانفجار و العاصفة.
{و راودته التي هو في بيتها عن نفسه و غلقت الأبواب و قالت هيت لك}
و في هذه المرة : المراودة مكشوفة ..!!
و في هذه المرة : الدعوة إلى الفعل الأخير سافرة ؛ إذ حركة الأبواب لا تكون إلا في اللحظات الأخيرة.

و في هذه المراودة : هي تملكه ؛ فهو في بيتها على الدوام من جهة ، و قد غلقت الأبواب - ساعتئذ- من جهة أخرى.
و هو فتاها و عبدها و خادمها .. من جهة ثالثة.
و لكن ..!!
الذي يصمد أمام الإغراءات الكثيرة العديدة المتنوعة ، طوال هذه المدة .. ليس من الضروري أن ينجح في هذا الاختبار العاصف ..!!
و مع ذلك ..
نجح في الرد الفوري ، حيث {قال مَعاذ الله إنه ربي أحسن مَثواي إنه لا يفلح الظالمون}
أي : أعوذ بالله ، و ألجأ إليه ، و أحتمي به ، من أن أقع فريسة لهذا الإغراء ، وأضعف في هذه اللحظة ، و أستجيب لهذه الدعوة ، و أسقط في هذه الفتنة.
و ذلك لعدة أسباب :

١ـ القرطبي ١٦٥/٩

أولها : خوفي من الله ، و مراقبتي لجنابه ، و مرضاتي له ، و اعتصامي به ، ولجوئي إليه {معاذ الله}.
ثانيها : احترامي لسيدي الذي هيأ لي في هذا القصر إقامتي الكريمة ، و مثواي الطيب {إنه ربي أحسن مثواي} فلا ينبغي أن أقابل إحسانه بالسوء ، و ائْتِمَانَه بالخيانة.
و ثالثها : أن استجابتي لهذه الدعوة .. تجرؤ على حرمات الله ، و مقارفة هذه الخطيئة : ظلم ، و لا أحب أن أكون ظالما ، حيث إن الظالم لا يفلح أبدا ، لا في الدنيا و لا في الآخرة {إنه لا يفلح الظالمون}.

و هذا درس تربوي ١ هام .. ينبغي أن نعيه جيدا أفرادا و جماعات ، شعوبا و حكومات.
و هو : أن الاجتراء على محارم الله و حدوده : ظلم.
و الاجتراء عليها :
يكون بإهمالها ، و عدم الامتثال لأوامرها ، و الاجتناب لنواهيها.
و يكون بالتَّخْليط فيها ، و إدخال ما ليس منها فيها ، أو إشْراك غيرها معها.
و يكون بإنكارها كلية ، أو إنكار صلاحيتها.
و كل هذا ظلم .. و أهله ظالمون.

و الظالم : لا يفلح أبدا ، و لا يسعد أبدا ، و لا ينجو من غضب الله و عقابه أبدا.
و الظلم في كل صوره : مذموم.
و الظالم في كل أحواله : خاسر و محروم.

❋❋❋

و في هذا الجو المشحون المتوتر : يصور القرآن جانبا من جوانب هذا الحدث الهام الخطير ، و يقدم صورة من صور الرعاية الربانية لأولياء الله تعالى و أهله ، و المقربين منه ، المطيعين له.
حيث يقول :
{و لقد همت به} همَّ فعل و مقارفة للخطيئة ، فهي التي راودت عن نفسها ، و هي التي غلقت الأبواب ، و هي التي لم تتمالك عواطفها ، و لم تتحكم في سعار غريزتها.
{و هم بها}
و حول هذا التعبير القرآني عن هم يوسف تحدث العلماء كثيرا.

١- الدرس رقم (٢٩)

و أفضل ما قيل و أصوبه : أن يوسف {هم بها} هم طبع ، من غير تصميم على الفعل ، أو إرادة لمقارفته ، أي هم خاطر عارض.
يقول الإمام بن القيم في معنى (وهم بها) وجهان :
أحدهما : أنه لم يهم بها أصلا ، بل (لولا أن رأى برهان ربه) لهم بها .
وهذا : قول بعضهم في تقدير الآية .
والثاني : وهو الصواب .
أن همَّه .. كان هم خطرات ، فتركه لله ؛ فأثابه الله عليه .
وأما همها .. فكان هم إصرار ، بذلت معه جهدها ، فلم تصل إليه .
فلم يستو الهمان ....!!!
وقال الإمام أحمد بن حنبل : الهم همان .. هم خَطَرات وهم إصرار .
فهم الخطرات : لا يؤاخَذ به العبد ، وهم الإصرار : يؤاخذ به ١.
وإلى هذا المعنى: ذهب .. الحسن البصري ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، والسدي .
وهو قول عامة المفسرين ٢.

١ ـ انظر : بدائع التفسير .. لابن القيم ٤٤٦/٢

٢ ـ انظر : في تفسير الآية رقم ٢٤ من سورة يوسف هذه المراجع :
أ ـ المحرر الوجيز .. لإبن عطيه . ت ٥٤٦ هـ
ب ـ زاد المسير .. لإبن الجوزي ت ٥٩٧ هـ
ج ـ تفسير الخازن .. للخازن ت ٧٢٥ هـ
د ـ بدائع التفسير .. لإبن القيم. ت ٧٥١ هـ
هـ ـ البحر المحيط .. لأبي حيان ت ٧٥٤ هـ
و ـ إرشاد العقل السليم . لأبي السعود ت ٩٥١ هـ
ز ـ الفتوحات الإلاهية .. للجمل ت ١٢٠٤ هـ
ح ـ فتح القدير .. للشوكاني ت ١٢٥٠ هـ
ي ـ روح المعاني .. للآلوسي ت ١٢٧٠ هـ

يقول الإمام القرطبي ١ : و ما كان من هذا القبيل لا يؤاخذ به العبد.

فقد يخطر بقلب المرء و هو صائم : شرب الماء البارد ، و تناول الطعام اللذيذ ، فإذا لم يأكل و لم يشرب ، و لم يصمم عزمه على الأكل أو الشرب : لا يؤاخذ بما هجس في النفس.

و هذا فهم و توضيح للهم : لا يضر و لا يقدح في طهارة يوسف عليه السلام ، سواء كان نبيا في هذا الوقت ـ كما يقول البعض ـ أو لم يكن نبيا.

خاصة : و أن يوسف عليه السلام قد عمل بما علَّمه الله ، من تحريم الزنا و مقدماته ، و خيانة السيد و الجار و الأجنبي في أهله.

فما تَعرض لامرأة العزيز ، و لا أجابها للمراودة ، بل : أدْبَر عنها ، و فَرَّ منها.

و في الصحيح : "إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل ، أو تكلم به٢

و إذا عُلِمَ هذا و اتضح جيدا ..

نقول :

نعم {هم بها لولا أن رأى برهان ربه} لكان ما كان ، و لذا لم يكن شيء.

و هذا فهم : أقرب إلى الطبيعة البشرية و إلى العصمة النبوية ..!

خاصة و أن يوسف : لم يكن سوى بشر.

و لكنه : بشر مختار.

و لهذا : لم يتجاوز همه الميل النفسي في لحظة من لحظات الضعف البشري.

ثم تداركته العناية الإلهية - جزاء إحسانه ، و صبره الطويل ، و مثابرته في جهاد النفس و الشيطان- بالبرهان المثبّت له على الحق ، و المعين له على الصمود ، و الصارف له عن الخطيئة ، و المبعد عنه غلبة الضعف عليه.

و هذا البرهان الذي رآه : غير مذكور في القرآن على وجه التعيين و التحديد.

و قد تكلم فيه العلماء و ذكروا فيه أقوالا كثيرة.

منها : ما روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ..

أن هذه المرأة قامت إلى صنم كان في زاوية بالبيت ، فسترته بثوب.

١ـ القرطبي ١٦٧/٩، ١٦٨

٢ـ البخاري .. ك العتق ، باب الخطأ والنسيان ..إلخ ـ ومسلم .. ك الإيمان ، باب : تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب ما لم تستقر" اللفظ له "

فقال : ما تصنعين ..؟

قالت : أستحي من إلهي هذا أن يراني في هذه الصورة.

فقال يوسف : أنا أولى أن أستحي من الله.

يقول الإمام القرطبي : و هذا أحسن ما قيل في البرهان ، لأن فيه إقامة الدليل[1] .

و يقول غيره - في هذا البرهان- غير ذلك.

و الصواب - كما يقول ابن جرير- أن يقال : إنه آية من آيات الله تزجره عما كان قد هم به.

و يقول الإمام ابن كثير : و لا حجة قاطعة في تعيين شيء مما ذكر العلماء في هذا البرهان.

و لذا : فالصواب .. الإطلاق ، كما أطلق القرآن ، و عدم التحديد ، و لو كان في التحديد فائدة: لما أغفله القرآن الكريم.

المهم ..

أنه : هم ، و رأى برهان ربه ، فما تم شيء بفضل الله تعالى.

{ كذلك لنصرف عنه السوء و الفحشاء} أي : على هذا النحو من رعايتنا له ، و إنْعامنا به ، أرَيْنَاه برهاننا ؛ لنصرف عنه السوء و الفحشاء ، و نقيه أخطارهما في كل أموره.

---

١ ـ القرطبي ٩ /١٧٩ ٢ ـ الدرس رقم (٣٠)

وهنا يبدو هذا الدرس التربوي ٢:

إذ . . ينبغي أن يكون واضحا : أن الذي يدفع الضر ، و يجلب النفع ، و يصرف السوء هو الله تعالى.

{إنه من عبادنا المخلصين} أي : لأنه من عبادنا الذين صححوا عقيدتهم ، و صدقوا في عبادتهم ، و تطهروا في أخلاقهم ، و أحسنوا في معاملاتهم ، و أخلصوا لله تعالى ؛ فاجتباهم و اصطفاهم و اختارهم و طهرهم و أخلصهم له سبحانه و تعالى ؛ و لإخلاصهم صاروا مخلصين.

وبعد ..
فهل انتهت العاصفة . . ؟
وهل سكت الانفجار . . ؟
هذا ما يوضحه المشهد التالي . . ! !

المشهد الثالث

(ما جزاء من أراد بأهلك سوءا)؟

(من الآية ٢٥ إلى نهاية الآية ٢٩)

(أ) **مضمون المشهد** .

وآيات هذا المشهد : تصور الصراع بين الشهوة وقوة الارادة المعتصِمَة بالله .
كما تصور : عُنْفُوَان المتجبرين المغترين بصولجان الجاه والسلطان وَوُلُوغِهم في الباطل .
كما تبرز الحجة القوية في إبراز الحق وإظهاره ، وفي ذات الوقت . . استغلالها الهَشّ في الدفاع عن الحق وأهله إذا كانوا ضعفاء، بل التغاضي عنها نهائيا إذا

كانت فيها الإدانة لأهل الباطل المتكبرين المتجبرين المتسلطين .

(ب) آيات المشهد .

يقول تعالى

وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾

يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ



(ج) التفسير.. والدروس التربوية .

و لما رأى برهان ربه ، و صرف الله عنه السوء أن يَطُوله ، و الفحشاء أن يقع فيها : جرى جهة الباب ليهرب منها ، فجرت خلفه لتمسك به حتى يرجع إليها ، فكانا كأنهما يتسابقان.

{ و استبقا الباب } فلحقت به ، و أمسكته من الخلف ، و هو يحاول الهروب منها، و من أبوابها.

{و قَدَّت قميصه من دبر} و هذا أمر طبيعي ، فقد أمسكت به من الخلف ، و هو مستمر في جريه منها ، و هي مصرة على الإمساك به ليقف ، فتمزق قميصه من هذا الشد و الجذب ، و ذلك أمر طبيعي : أن يكون هذا التمزق من موضع هذا الجذب و الشد ، و هو الخلف.

و خلال هذا التسابق نحو الباب : !!

و عقب هذا الشد و الجذب و القد للقميص ..!!

تقع مفاجأة .. فقد ..

{ألفيا سيدها لدى الباب} أي : وجدا زوجها عند الباب ، الذي حاول الهروب منه ، والذي تجري إليه وراءه لتوقفه حتى لا يخرج منه.

فماذا حدث ..؟

سكت هو ، إيثارا للسلامة ، و سترا عليها.

أما هي : فكان جوابُها حاضرا ، و اتهامُها للبريء جاهزا ، و دفاعُها عن نفسها واضحا ، و استغفالُها لزوجها باديا.

إذ قالت لزوجها على الفور :

{ما جزاء من أراد بأهلك سوء} ؟
و سؤالها هذا: ليس سؤال استفهام و استعلام ، إنما سؤال اتهام ، و يصدق عليه المثل المشهور : "رمتني بدائها و انسلت ١ .
ثم جعلت من نفسها الخصم و الحكم ، أو القاضي و الجلاد ..!!
و أيضا ... لأنها تخشى أن يُعمل بقاعدة المتهم بريء حتى تثبت إدانته ..!!
فقد أشْفَعَت اتهامَها السريع .. بحكمها السريع أيضا
إذ قالت :{إلا أن يسجن أو عذاب أليم}

١ـ انظر مجمع الأمثال للميداني ٢٨٧/١ الباب العاشر

عجيب ..!!
إنها تحكم عليه بالإبقاء تحت سلطانها ، فلم تحكم عليه بالنفي أو الإهلاك.
نعم .. إنه حكم من يعشق و يحب ، فهي تخشى عليه ، فتشير بالعقاب المأمون ، الذي يُبْقِيه ـ فيما تظن- قريبا منها و تحت يدها ، راجيا عفوها و رضاها.
و قد حكمت على هذا الوجه من السرعة : لتقطع الطريق على زوجها في أن يستفسر عما حدث ، فيعرف الحقيقة ، و لتغلق الباب على يوسف أن ينطق بما حدث ؛ فتنكشف الحقيقة.
و إلى هنا ..
و لا يصبر يوسف عليه السلام على هذا الاتهام ..!!
يوسف الذي صبر على أذى إخوته ، و مكرهم به ، و كيدهم له.
يوسف الذي صبر على الجب و ظلمته و روعته ..!!
يوسف الذي صبر على ذل الرق و العبودية ..!!
يوسف الذي صبر على الخدمة في بيت العزيز ..!!
يوسف الذي صبر على طاعة الله ، و الذي صبر في البعد عن معصية الله ، طيلة وجوده في قصر العزيز ، مع كثرة الإغراءات ، وهو في سن شدة الشهوات ..!!
نعم .. يوسف الذي صبر على كل هذا و أكثر منه : ما صبر على أن يطعن في شرفه ، و أن يتهم بالخيانة لسيده ، و المعصية لربه ، خاصة : و أن الدعاة قُدْوَة ، و إذا تَحَطَّمَت القدوة : تَهَدَّمَت الدعوة.
و لذلك أجاب قائلا :
{هي راودتني عن نفسي}
عبارة موجزة مختصرة عفيفة ، جهر بها يوسف عليه السلام في وجه هذا الاتهام الباطل ، و هي عبارة : جد صادقة.

و أدلة صدقها :
حياته في هذا القصر ، هذه المدة الطويلة ، التي تشهد بعفته و طهارته.
معرفة زوجها و أهل القصر جميعا بسلوكه و نزاهته.
عدم اتهامه قبلا بمثل هذا الأمر ، أو ظهور أماراته عليه ، و إلا لطُرِدَ من هذا المكان و أُبْعِدَ عن أهل هذا البيت، الذين آووه ، و أكرموه.

وهذا درس تربوي هام ١ :
ينبغي أن يكون واضحا لدى الدعاة إلى الله تعالى في الدفاع عن القدوة ، وبالأسلوب العفيف الطاهر .

* * *

و مع ذلك : أراد الله عز و جل أن يلفت أنظارهم إلى أدلة مادية ، لا يشك أحد منهم بعدها في نقائه و طهارته و براءته.
و كان هذا الدليل : على يد واحد من أهلها فقط.
و دون ضجة ، و دون صخب ، و دون دويّ إعلامي.
{و شهد شاهد من أهلها}
بماذا ..؟
{إن كان قميصه قد من قبل فصدقت و هو من الكاذبين۞ و إن كان قميصه قد من دبر فكذبت و هو من الصادقين}
و بالرغم أنه شاهد حكيم ، و عاقل أريب : فقد كان يتمنى أن تكون صادقة في دعواها ، بريئة مما رماها به فتاها.
إذْ قدَّمَ احْتمال صدقها أوَّلا.
أو قد يكون ذلك من باب اللياقة ، و مراعاة المراكز الاجتماعية لهما ، فهي السيدة و هو الفتى.
و بناءً على هذه الافتراضات : فلننتقل الآن إلى المعاينة ، التي تبين حقيقة التهمة ، و براءه هذا أو ذاك.
و نظر إلى القميص الذي يرتديه يوسف عليه السلام.
فماذا رأى ..؟
رأى قميصه ..قُدَّ مِنْ دُبُرٍ ..!!

{فلما رأى قميصه قد من دبر} : تبين له حسب الافتراض السابق ، و المعاينة التي تمت .. أنها هي التي راودته عن نفسه.
كما تبين بالتالي : أنها هي التي دبرت هذا الاتهام الفظيع.
و لهذا و بكل وضوح : فإن يوسف إذن بريء مما نُسِب إليه ، و اتُّهِمَ به ، و لُصِّق له.

١ـ الدرس رقم (٣١)

و إذا كان الأمر على هذا الشكل ..!!
فماذا حدث بعد ..؟
و هنا تبدو لنا صورة من "الطبقة الراقية" في الجاهلية ، قبل آلاف السنين ، و التي تكاد أن تكون هِيَ هِيَ .. بعد آلاف السنين..!!
رَخَاوَة في مواجهة الفضائح الجنسية ، و مَيْل إلى كتمان خبرها عن المجتمع.
و هذا هو كل المهم.
إذ يصدر الحكم في هذه القضية في جمل ثلاث هي :
{قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم}
{يوسف أعرض عن هذا}
{و استغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين}
لم يصدر اتهام صريح.
ففي الفقرة الأولى : كأنه يلتمس العذر لها ، إذ هي واحدة من بنات جنسها ، المعروف عنهن الإغراء و الخطأ و الكيد.
و كأنه لا لوم عليها.
و في الفقرة الثانية : إلْتِمَاس ليوسف أن يتناسى هذا الموضوع ، و أن لا يفاتح به أحدا ، و أن يستمر في حياته بهذا القصر.
و في الثالثة : رجاء إليها أن تستغفر لذنبها ، حيث إن ذلك قد صدر منها على سبيل الخطأ {إنك كنت من الخاطئين}.
و كأنها كانت ..!!
أما الآن .. فقد زال خطؤها ، و قُبِلَ عذرها.
حيث لم يقل (إنك من الخاطئين).
و هذا الحكم على ما يظهر : حكم مائِع مُتَمَيِّعٌ ، في مجتمع لا نَخْوَة فيه و لا رُجولة.

و قد تمت المعاينة ، و المحاكمة ، و صدور الحكم .. دون ضجة أو صخب ، لأن المجرم في هذه القضية من "الطبقة الراقية الحاكمة" التي تتستر خلف المظاهر ، بل تحافظ عليها.

و لو كان المذنب فيها من عامة الشعب : لهاجت الدنيا و ماجت ، و صُوِّرت الجريمة أبشع تصوير ، و حضر المعاينة آلاف المنافقين و المجاملين ، بدلا من هذا الفرد الوحيد الذي عاين الآن.

و أيضا : لو أنه.. قد ظهر أن المذنب فيها هو يوسف ؛ لصدرت الأحكام و الأحكام ، و نُفِّذَت القوانين بمنتهى الصرامة و الشدة ، من باب.. إظهار العدل ، و إنفاذ القانون ، و احترام حقوق الغير.

و هكذا ..

عند هذه الطبقة الراقية العالية في الجاهلية ، و كل جاهلية : لا يهم ما حدث ، إنما المهم التكتم على ما حدث ، حفاظا على الصورة و المظهر.

{يوسف أعرض عن هذا}

و يسدل الستار على المشهد و ما فيه.

و اللافت للنظر في نهاية هذا المشهد : أن السياق صور تلك اللحظة بكل ملابساتها وانفعالاتها ، و لكن.. دون أن ينشئ منها معرضا للنَّزْوَة الحيوانية ، و لا مستنقعا للوَحْل الجنسي المَقْبُوح.

و لكن ..!!

هل انتهى الحديث عن هذه المحنة ..؟

لا .. لم ينته الحديث.

بل لم ينته الحدث.

إذ لم يفصل السيد بين المرأة و فتاها.

و مضت الأمور - كما يقول شهيد الإسلام- في طريقها.

و هكذا تمضي الأمور في القصور ..!!

و لكن : للقصور جدران ، و فيها خدم و حشم ، و ما يجري في القصور : لا يمكن أن يظل مستورا...!!

و بخاصة : في الوسط الأرستقراطي ، الذي ليس لنسائه منهم عمل إلا الحديث عما يجري في محيطهن ، و إلا تداول هذه الفضائح ، و لَوْكِها على الألْسِنَة في المجالس والسهرات و الزيارات.

و هكذا ..
و رغما عن التكتم الشديد ..!!
فقد انتشر الخبر ..!!
و ترتبت على هذا أحداث و أحداث.
و هذا ما تجيب عنه آيات المشهد التالي.

المشهد الرابع

(وقال نسوة في المدينة)

(من الآية ٣٠ إلى نهاية الآية ٣٢)

(أ) مضمون المشهد .

وهذا المشهد : يقدم لونا من ألوان الأحاديث النسائية في المجتمعات المُتْرَفَة .

كما يقدم : صورة من الحيل النسائية ، التي تنم عن ترف القصور ، وإصرار أصحابها على تنفيذ مآربهم ، وتحقيق رغباتهم .

وفي ذات الوقت : يكشف عن مـــدى بطش وفجور أصحاب السلطة ، حين تستبد بهم النزوات ، وتتغلب عليهم الشهوات . .

(ب) آيات المشهد .

يقول تعالى :

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢)

(ج) التفسير . . والدروس التربوية

هذه هي آيات المشهد الرابع من هذا الفصل الثاني من قصة يوسف عليه السلام.

{و قال نسوة في المدينة} هن ربات القصور و الصالونات ، و اللائي يصل إليهن مثل هذا الخير ، عن طريق الخدم و الحشم ، و يتشهين رائحة الفضائح ، و الحديث عنها ، عندما لا يوجد تَدَيُّن يحميهن ، أو خوف يردعهن.

ماذا قالت النسوة ..؟

قلن :

{امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه} أي : تحاول غلامها عن نفسه ، و تدعوه إلى نفسها ، لتنال منه شهوتها.

و ذلك بسبب أنه :

{قد شغفها حبا} أي خرق حبُه قلبَها و وصل إلى شغافه و مزقه تمزيقا.

و هذا لا يليق بها ، و لا بمركزها الاجتماعي ، و لا بمكانة زوجها.

{إنا لنراها في ضلال مبين}

حيث أخطأت هذه السيدة الكبيرة ، زوجة السيد الكبير ، عزيز مصر ، و رئيس وزرائها .. في الاختيار ..!!

أو أنها أخطأت - فيما يرون- في اشتهارها بهذه الفتنة ، و انكشاف أمرها في هذه الفعلة ..!!

و لو أنها أحسنت الاختيار فيما حاولت ..!!

أو لو أنها نجحت في إخفاء أمرها عندما حاولت ..!!

ما كان هناك عيب منها أو انتقاد لها.

فالمنتقد عند هذه الطبقة : سوء اختيارها ، أو انكشاف أمرها فقط ، و ليست الفعلة في حد ذاتها لو ظلت في السر ، و بعيدة عن الإشهار ..!!

❋❋❋

و هنا يصل هذا الغَمْزُ بها ، و الانتقاد لتصرفها إليها.

فيقع ما لا يمكن وقوعه إلا في مثل هذه الأوساط ..!!

و يكشف السياق القرآني في هذا المشهد عن صنع تلك المرأة الجريئة ، التي تعرف كيف تواجه نساء طبقتها بِمَكْرٍ كَمَكْرِهِنَّ ، وَ كَيْدٍ ككيدهن.

خاصة .. و أن الحل الذي تم ، و الحكم الذي صدر قبلا ، في المشهد السابق : لم يقنعها ، و لم يوقفها عن اندفاعها.

{فلما سمعت بمكرهن} كأنها ازدادت إصرارا على إصرار ، و رغبة في فتاها أكثر من ذي قبل ، و أرادت أن تكسبهن إلى صفها ، أو تسكتهن عن ملامتها و انتقادها ، بحيلة نسائية ، و خدعة ترفية.

فماذا فعلت ..؟

{أرسلت إليهن} دعوة لحضور قصرها ، و الاجتماع على مأدبة طعامها.

{و أعتدت لهن متكئا} وثيرا ، يسترحن إليه ، و يجلسن عليه.

فلما حضرت المدعوات ، و هن نساء هذه الطبقة المترفة ربات القصور ، و صواحب الغمز و اللمز عليها بفتاها الذي شغفها حبا : قدمت لهن الأطعمة ، و أحضرت لهن الفاكهة التي تحتاج إلى تقطيع و تقشير بالسكاكين.

{و آتت كل واحدة منهن سكينا} لتقشير الفاكهة و تقطيعها حسب المعتاد ، و ظاهر الأمر ، و لكنها كانت تبيت لهن أمرا.

و بينما هن في لهوهن و أكلهن و سمرهن و غمزهن و لمزهن ، إذ :

{قالت} ليوسف

{اخرج عليهن}

و لاحظوا أيها الإخوة و الأخوات : أنها لم تقل (أخرج إليهن) و يقول علماء اللغة العربية [١] : أن كلمة (اخرج) تتعدى إلى ما بعدها بـ (إلى) أو بـ (على) ، و أنها تتعدى بعلى إذا كان الخروج بقهر وغلبة ، أو بجمال يُبْهِر، أو بزينة تسحرالألباب ، أو بآية ، أ و أمر

---

١ ـ مسائل الرازي ص ١٤٩

عظيم ، كقولهم "خرج علينا في السفر قطاع الطرق" أو كقوله تعالى عن قارون {فخرج على قومه في زينته} ١ أو قوله تعالى في زكريا عليه السلام {فخرج على قومه من المحراب} ٢ .

و لذا قالت {اخرج عليهن} : لأنه سيخرج بجمال قاهر غلاب ، و زينة ربانية تسحر الألباب ، فهو خروج قَهْرٍ لهن ، و غلبة -كما تثق هي- على قلوبهن و عقولهن و عواطفهن.

و قد كان ..!!

{فلما رأينه} للوهلة الأولى ، حدث ما يلي :

{أكبرنه} أي بُهِتْنَ لطلْعَتِه ، و أعظمنه ، و دُهِشْن لذلك الحُسْن الرائق ، و الجمال الفائق ، الذي لم يرين له مثيلا ، و استغرقتهن الدهشة ، و استولى عليهن الانبهار ، و ذهلن لذلك ذهولا شديدا.

{و قطعن أيديهن} و جرحن أيديهن ، و قد عبر عن التجريح بالتقطيع ، على عادة هذه الطبقة من المبالغة في أي ألم يصيبهن أو ينزل بهن ، و إلا فإنهن ما قطعن أيديهن حسب المعروف من لفظ القطع الوارد في قوله تعالى {فاقطعوا أيديهما} ٣ .

و ليس الانبهار بالجمال الذي حباه الله ليوسف ، و الدهشة لطلعته عليهن ، و التي أذهلتهن عن تجريح أيديهن فقط هو التصرف الذي حدث منهن.. بل إنهن:

{قلن حاشا لله ما هذا بشرا} فقد رأينا البشر ، و عرفنا أصنافهم من مواقعنا العالية في طبقتنا الراقية ..!!

إذن .. ماذا يكون هذا ..؟

إنه من أحسن ما خلق الله ..!!

فما أحسن ما خلق الله ..؟

يقول الناس : إنهم الملائكة ..

إذن .. فهذا ليس ملكا فقط :

{إن هذا إلا ملك كريم}

كل هذا .. و هُنَّ في ذهول .. ذهول في إكباره و إجلاله. .!! ذهول في تقطيع أيديهن ..!! ذهول في البحث عن وصف يناسبه ..!!

و كأنَّ لسان حالهن ، و هن في هذه الحال ، يقول لامرأة العزيز : ما نرى عليك من لوم فيما فعلته، أو تفعلينه، به أو معه ، بعد هذا الذي رأيناه بعيوننا و قلوبنا.

١ـ القصص ٧٩ ٢ـ مريم ١١ ٣ـ المائدة ٣٨

و إلى هنا .. و استراحت امرأة العزيز ، و نجحت في خطتها ، و استعادت قوتها.
كما رأت أنها قد انتصرت على نساء طبقتها ، اللائي لم يتمالكن أنفسهن أمام طلعة يوسف ، من الدهشة و الذهول و الإعجاب.
فسارعت .. و قالت قولة المرأة المنتصرة ، التي لا تستحي أمام النساء من بنات جنسها و طبقتها ، و التي ازدادت عليهن - فيما ترى- قوة بهذا الموقف ، و التي تفخر عليهن بأن هذا الذي بهرهن في متناول يديها.
و إذا كان قد استعصى قياد ه عليها ، و استعصم منها مرة ، فهي تملك هذا القياد ، وتعرف كيف تعالج هذا الاستعصام مرة أخرى ، إذ :
{قالت} لهن ، و هن في هذه الحال :
{فذلكن الذي لُمتنني فيه} قد بهركن جماله و أدهشكن ، و لمجرد نظرة فقط : أكبرتوهن ، و تقطعت من ذهولكن لجماله الأيدي ، و نطقت ألسنتكن بما يثبت العجز عن وصف هذا الجمال.
و لقد بهرني مثلما بهركن.
ثم اعترفت اعترافا خطيرا أمام هؤلاء النسوة ، و هن في هذه الحال ، من الافتتان بيوسف عليه السلام.
اعتراف كله تبجُّح ، و إعلان لاستمرارها على موقفها ، دون خجل أو حياء ، إذ قالت :
{و لقد راودته عن نفسه فاستعصم}
نعم .. راوَدْتُه عن نفسه...
و لكنه : تجلد و تماسك.. أمام فتنتي وأنوثتي وجمالي.
و على كل حال : فما زلت أريده ، و لا بد أن ينهار تماسكه ، و أن يتخلى عن ادعاء العصمة.
و لئن كان هذا الكلام : تحت تأثير الغريزة العمياء ، و كيد الشيطان للإنسان ، وذهاب والحياء.
فلقد استولت عليها كذلك حمى الطغيان ، و بطش السلطة ، و اندفاع الغرور ، إذ قالت مهددة متوعدة ، في صورة قرار، لا راد لتنفيذه :
{و لئن لم يفعل ما آمره} به ، و أريده منه : {ليسجنن و ليكونا من الصاغرين} الأذلاء ، مع السرّاق و السفاك و الأبّاق في السجن ، كما سرق مني قلبي ، وسفك دمي بالفـــــراق ،

و أبق مني، و هرب بعيدا عني.. فلا يهنأ له في السجن طعام أو شراب أو منام بعد ذلك ، كما منعني هنا كل ذلك.

و من لم يرض بمثلي في الحرير على السرير أميرا : فليكن في السجن على الحصير أسيرا ١ .

و بهذا التهديد .. و بهذا القرار : حسم الموقف من جهة امرأة العزيز.

و أصبح على يوسف أن يختار بين مبادئه التي يتمسك بها ، و سوف يعذب من أجلها ، و قد تزهق حياته في سبيلها ، و بين هذا النعيم الذي تَعِدُه بِه هذه السيدة الأولى في البلاد ، و صاحبة الحول و الطول ، و الأمر و النهي فيها .

بين: أن يبيع نفسه لله تعالى ، و لَوْ ناله من العذاب في الدنيا ، و المهانة بين أهلها ، و المذلة في سجونها ، ما يناله ..!!

و بين: أن يبيع نفسه للهوى و الشيطان ، فينال النعيم العاجل في الدنيا ، و الاحترام الزائف بين أهلها ، و التمتع بمباهجها و مناصبها .. الخ.

هذا ما نقوله نحن ..

فماذا كان من يوسف عليه السلام في هذا الموقف ..؟

و هذا ما سوف تجيب عليه آيات المشهد التالي :

١ـ الأساس في التفسير ٥/ ٢٦٤٨

المشهد الخامس

(السجن أحب إلي مما يدعونني إليه)

(من الآية ٣٣ إلى نهاية الآية ٣٥)

(أ) مضمون المشهد .

آيات هذا المشهد : تقودنا إلى صدق اللجوء لله تعالى ، وشجاعة الاختيار لما يرضيه ، وقوة الإرادة وصدق العزيمة في طاعته ،والنجاح في الموازنة بين العاجل والآجل.

كما : تُطْلِعُنَا على قرب الله تعالى من عبده الصادق في الإنابة إليه ، والتضرع بين يديه ، و سرعة إجابته له في تحقيق ما يطلبه منه ، ويرنو فى شوق إليه .

(ب) آيات المشهد .

يقول تعالى :

قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُاْ ٱلْأٓيَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٣٥﴾

(ج) التفسير.. والدروس التربوية .

لقد شاهد يوسف الموقف السابق من هؤلاء النسوة ..!!
و سمع - كذلك- التهديد و الوعيد، و الإصرار العنيد ..!!
و عرف أنه لا طاقة له بأعراف هذا المجتمع و ضلاله ..!!
و عرف أنه قد ل ا يصمد طويلا أمام كيد النساء ، المتصاعد على هذا النحو ، و خاف على نفسه الضعف أما م الإغراء ..!!
و عرف أن طاعة الله و لو في غياهب السجون ، أفضل من معصيته مع حريات زائفة ..!!
و عرف أن تهديد الطغاة بخنق الحريات و إذلال العباد طَبْع فيهم ، و سَهْل لديهم ..!!
و عرف أن النجاة من غضب الله و عقابه ، و الفوز برضوانه : يهون من أجله كل شيء ، و يُسْتَعْذَب من أجله كل عذاب.
و عرف أن الصبر على متاعب الدنيا و مصائبها : يهون في جانب عدم الصبر على عذاب الآخرة !
و لأنه : شاهد ، و سمع ، و عرف كل ذلك . . !!
فقد انصرف عن الجميع ..
و لجأ إلى خالقه و مولاه ..
و جأر بالشكوى إليه ..
و {قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه} أي : حبس حريتي في السجن ، وملاقاة التعذيب فيه ، و الوَحْشَة و الوحدة بين جدرانه و ظلماته .. أحب إلي من ركوب المعصية ، و إتيان الفاحشة ، و مجاراة هذا المجتمع في فجوره و ضياعه و ضلاله.
و لم يقل : رب السجن خير إلي مما يدعونني إليه ..!!
و لم يقل : رب السجن يفضل عندي ما يدعونني إليه ..!!
بل قال بصيغة التفضيل "أحب".
و معلوم أن لا أحد يحب أن يسجن ، بل لا يكون السجن أحب إلى أحد من أي شيء.
و لكنه قال هذه الصيغة "أحب" لبيان أنه يصرخ إلى الله تعالى من أعماقه لإنقاذه من ضلال هذا المجتمع ، و فساد هؤلاء النسوة ، و أن السجن الذي يتمكن فيه من طاعة الله أحب إليه آلاف المرات ، من الحرية التي توقعه في سجن الشيطان و النساء و الشهوات.؟

كذلك : لم يقل رب السجن خير إلي مما تدعوني إليه ، أي امرأة العزيز ، إذ هي التي تدعوه ، و لم يذكر السياق القرآني غيرها.
بل قال : {مما يدعونني إليه} أي الجميع.
و كأنه رأى رغبة جميع النسوة الحاضرات بادية منهن فيه.
أو كأنه رأى إجماع الكل أن عليه أن يرحم سيدته و يعطيها مرادها.
و ذلك هو منطق المجتمع الذي لم يتحل بالإيمان ، و لم يعرف الطريق إليه.
و هنا .. لا بد من وقفة تأمل ..!!
فإن يوسف عليه السلام من أجل مبدئه في طاعة الله ، فَضَّل السجن ، و هانَتْ عليه حريته.

و في ذلك درس تربوي هام ١
يتضح منه و فيه : أن المبادئ والدعوات ، ليست كلاما يُقال ، ولا نظريات تُطرح، بل هي عقيدة و تضحيات.
و أن مرضاة الله تعالى : يهون من أجلها كل متاعب الحياة.
و أن تفضيل العذاب اختيارا و رضا ؛ للهروب من التفريط في العقيدة و المبدأ ، و النجاة من شرور معصية الله تعالى ، إذا لم يكن غيره من طريق : هو قمة التعبد لله ، و قمة الصدق في طاعته عز وجل.
ولئن كان يوسف عليه السلام قد اختار السجن بدلا مما يعرض و يفرض عليه : فليس ذلك لكل أحد.
بل إن الأولى بالنسبة لنا .. أن نسأل الله تعالى العافية دائما ، و السلامة من كل سوء دائما.
فإذا ما جاء الابتلاء : كان منا الصبر بقضاء الله تعالى ، و الرضا بقدره سبحانه.
بل إن يوسف عليه السلام لو سأل الله العافية : لكان أفضل.
فقد ذكر الإمام القرطبي .. أنه حكي أن يوسف عليه السلام .. لما قال {رب السجن أحب إلي} أوحى الله إليه : "يا يوسف ..!! أنت حبست نفسك حين قلت : السجن أحب إلي ، و لو قلت : العافية أحب إلي ..!! لعوفيت" ٢ .

* **

---

١ ـ الدرس رقم ٣٢ ٢ ـ القرطبي ٩/ ١٨٤

هذا ..

ثم بين يوسف عليه السلام أن العلة في هذا الاختيار الصعب : هو بشريته ، و ما ركب فيها من طبع.

حيث قال : {و إلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن و أكن من الجاهلين}

أي : قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه من الخطيئة ،فاصرف عني كيدهن.

فإنك إن لم تصرف عني كيدهن : فأنا بشر ضعيف ، قد أخطئ ، و أصبو إليهن و أميل ؛ فأنحرف.

و لو حدث هذا : {أكن من الجاهلين} أي ممن يرتكبون الإثم ، و يستحقون الذم ، أو ممن يعمل عمل الجاهلين.

و في هذا درس تربوي واضح ١ . .

أنه لا أحد يمتنع عن معصية الله إلا بمعونة الله.

كما أنه لا أحد يقدر على طاعة الله -أيضا- إلا بمعونة الله.

حيث إنه لا يصرف عن المعصية إلا الله.

كما أنه لا يعين على الطاعة إلا الله.

و في هذا تنبيه على أنه ينبغي : الاستعانة بالله تعالى دائما في كل شيء ، و لكل شيء ، و على كل شيء.

و هذا بعض أسرار السؤال الدائم لله تعالى سبع عشرة مرة في ركعات الفريضة ، كل يوم ، في قوله تعالى {إياك نعبد و إياك نستعين}

و هو أيضا : بعض أسرار التعليم الدائم لنا من النبي (صلى الله عليه وسلم) ، حيث يقول : "إذا استعنت فاستعن بالله"٢ .

و درس آخر ٣ :

أن مرتكب الخطيئة : جاهل.

و أن كل من يقدم على معصية الله تعالى فهو جاهل.

و بالتالي : فالعالم .. هو من يبتعد عن معصية الله تعالى؛ طاعة له ، و حبا في مرضاته ، و رغبة في نوال غفرانه ، عن طريق الالتزام بأحكامه ، و إسعاد عباده، وإصلاح بلاده.

١ـ الدرس رقم ٣٣ ٢ـ أخرجه الترمذي .. ك صفة القيامة ، باب ٥٩ ، وقال حسن صحيح .

٣ـ الدرس رقم ٣٤

و لأن يوسف كان صادقا في لجوئه لمولاه : فقد استجاب له ربه.
و كل من دعا الله صادقا في دعواه : استجاب له مولاه.
نعم ..
{فاستجاب له ربه} لأنه تعالى يجيب دعاء المضطرين ، و هو مضطر ، كما يجيب دعاء المظلومين ، و هو مظلوم.
{فصرف عنه كيدهن} و ذلك : إما بتقوية عزيمته في مواجهة إغرائهن له ، ومراودة امرأة العزيز ، و إما بصرف رغباتهن فيه ، أو إدخال اليأس إلى نفوسهن من الأمل في استجابته.

***

و بعد هذه المكيدة الجماعية ..!!
و بعد هذا التهديد ، و الوعيد الشديد ..!!
و بعد إعلان الرغبة الجامحة ، و الثورة العارمة : لامرأة العزيز.
و بعد أن اتضحت براءة يوسف عليه السلام ..!!
و تكشفت قوة شخصيته ، و مدى الصدق في التمسك بمبادئه ..!!
ماذا يكون الحل في هذا الوضع المتأزم ، الذي أحال حياة أهل القصر إلى جحيم ، وجعل الجبابرة فيه أقزاما ، و الطغاة فيه أمام الحق ضعافا ، لا يستطيعون تنفيذ ما يريدون ، و لا الوصول لأغراضهم بما به يهددون ؟
ماذا يكون الحل .. والسيدة الكبيرة مستبدة على فتاها ، مستذلة أمام هواها ، آمرة لقومها ، ساجدة لشيطانها ..؟
ماذا يكون الحل .. و رائحة الفضيحة فاحت خارج القصر ..!! و لا بد من الحفاظ على المظاهر ، و على الكراسي ، و لا يهم التضحية من أجل ذلك ببريء أو أبرياء ، حتى تهدأ الفتنة و تسكن العاصفة ، و لو إلى حين.
و كان الحل الذي يسهل على كل الطغاة ، و الذي يلجأ إليه -عند العجز عن العدل والرضوخ للحق- كل الطغاة : هو السجن.
{ثم بدا لهم} إنقاذا للموقف ، و علاجا لسمعة القصر و من فيه ، وإهمالا وإلغاء للحكم الصادر قبل ذلك {يوسف أعرض عن هذا}.
{من بعد ما رأوا الآيات} نعم ، لقد رأوا آيات ودلائل براءة يوسف .. ولكن لا تهم هذه الآيات و العلامات و الدلالات التي رأوها على صدق البريء ، ما داموا هم الذين رأوها فقط دون غيرهم ، و حتى و لو رآها غيرهم ماذا يهم ..؟

ماذا بدا لهم ..؟
بدا لهم : القرار التالي ، الأبدي ، ما دام هناك صراع بين الحق و الباطل.
{ليسجننه حتى حين} أي السجن ، و حبس حرية هذا البريء ، حتى تهدأ عاصفة هذه السيدة ، و يسكن غضبها عليه ، أو حتى يلين هو و يستجيب لها، و ترضى عنه ، أو حتى يموت في سجنه ، و تموت معه القضية برمتها.
وعلى كل حال : فالسجن تغطية لفضيحتهم ، وستر لعورتهم ، ووقاية أن يذيع يوسف أخبار جرائمهم .
المهم . . أن يوسف قد زُجَّ به في غياهب السجن . . !!
و هكذا ..
ثم يسدل الستار عن هذا المشهد الخامس من الفصل الثاني من قصة يوسف عليه السلام.

و مع إسدال الستار : يكون واضحا من الدروس التربوية ما يلي :

١- أن الطغاة و الجبابرة و الظلمة -في كل العصور- لا يتورعون عن علاج عجزهم في تحقيق العدل ، و عن ستر فضائحهم عندما تنتشر بين الخلق .. أقول : لا يتورعون عن علاج ذلك بظلم الأبرياء ، و تلفيق التهم لهم، و تلويث سمعتهم ١.
و إلا . . فما هي تهمة يوسف غير الطهارة ، و نقاء السيرة ، ليسجن على هذا النحو..؟
٢- أن يوسف عليه السلام : أسوة الأبرياء في السجون و المعتقلات ، و قد أدخل إليه راضيا محتسبا ، بل محبا له و مفضلا على التخلي عن مبادئه في طاعة الله تعالى ، و خيانة الأمانة التي أؤتمن عليها من سيده.
و لهذا .. فإن الصبر على الإيذاء في سبيل الله ، و الرضا بقضائه ، من أجل المبدأ و العقيدة ، و إعلاء كلمة الله : هو عبادة لله تعالى ، و صاحبها في معية الله تعالى و رعايته ، طالما هو محتسب فيها لله ، مخلصا بها له ، صابر خلالها من أجله ، متعلق قلبه طيلتها برضاه عز و جل ٢ .
٣- يقول العلماء ٣ : جعل الله الحبس تطهيرا ليوسف عليه السلام من همه بالمرأة.
و نؤكد مرة أخرى : أن همه ذلك هو مجرد الخاطر الذي مر على ذهنه بمجرد بشريته.

١- الدرس رقم ٣٥ ٢- الدرس رقم٣٦ ٣- القرطبي ١٨٧/٩

المهم .. أن الله طهره بالحبس من مجرد هذا الخاطر.

و لهذا .. فالحبس للبريء : طهرة له من الذنوب ، و رفع لدرجاته عند الله تعالى.
و يقاس عليه ..
أن كل ما يصيب المسلم من نصب أو وصب أو أذى هو طهرة له من جهة ، و رفع لدرجاته من جهة أخرى ١ .
و في البخاري عن أبي هريرة عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : ما يصيب المسلم من نصب و لا وصب و لا هم و لا حُزن و لا أذى و لا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر بها من خطاياه" ٢ .
و في صحيح مسلم عن صهيب قال ٣ :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "عجبا لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، و ليس ذلك لأحد إلا للمؤمن.
إن أصابته سراء شكر .. فكان خيرا له.
و إن أصابت ضراء صبر . . فكان خيرا له."
أيها الإخوة و الأخوات في الله ..!!
إلى هنا ..
و ينفذ هذا الحكم الظالم ..!!
و يبدأ فصل جديد من فصول هذه القصة ، المليئة بالعبر و الآيات و الدروس.
فإلى الفصل الثالث الآتي .

١ـ الدرس رقم ٣٧
٢ـ رواه : البخاري .. كتاب المرضى
٣ـ مسلم كتاب الزهد والرقائق

الفصل الثالث

(ودخل معه السجن فتيان)

(من الآية ٣٦ إلى نهاية الآية ٥٣)

١ ـ المشهد الأول (إني أراني أعصر خمرا)

٢ ـ المشهد الثاني (إن الحكم إلا لله)

٣ ـ المشهد الثالث (إني أرى سبع بقرات سمان)

٤ ـ المشهد الرابع (قال تزرعون سبع سنين دأبا)

٥ ـ المشهد الخامس (الآن حصحص الحق)

المشهد الأول

(إني أراني أعصر خمرا . . .)

(من الآية ٣٦ إلى نهاية الآية ٣٨)

(أ) مضمون المشهد .

آيات هذا المشهد : تحكي لنا عن شابين في السجن أنِسَا ليوسف ، ووثقا فيه ، واستراحا له ؛ فقص كل منهماعليه رؤياه،وطلب منه أن يُعَبِّرَها له .

وانتهز يوسف هذا الوُدَّ منهما له ، وهذه الثقة منهما فيه . . وعرض عليهما دعوته ، ولخص لهما رسالته ، أملا في قبولهما لها ، وهدايتهما بها ، غير عابئ خلال ذلك بالحبس وآلامه ،ولا مشغول بالسجن وظلماته وظلمه .

(أ) آيات المشهد .

يقول تعالى :

وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرٗاۖ وَقَالَ
ٱلْأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزٗا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا
بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٞ تُرْزَقَانِهِۦٓ
إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي
رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٖ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ
كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾

(ج) التفسير.. والدروس التربوية .

وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٨﴾

نعم دخل يوسف السجن ..!!

و يبدو - و الله أعلم- أن قصته سبقته إلى هناك.

و لذا .. تطلعت الأنظار إليه ، و التَفَّ السجناء حوله ، فوجدوا فيه صلاحا ، وشخصية تستحق الثقة و الاحترام.

إذ كان في سجنه ..!! يصلي في الليل ، و يبكي في جوفه ، ، مقبلا على ربه ، عطوفا على زملائه ، صادقا في حديثه ، مبشرا في كلامه ، يُعَزِّي الحزين ، و يخفف عن المتعب ، و يعالج المريض ، و يستمع إلى شكاوى المهمومين ، و يجمع للمحتاجين.

و بدخوله هذا : تغير حال السجن - رويدا رويدا - ، بل تغير – كذلك فيه - حال المسجونين.

بل استأنس به أهل السجن من المسجونين و السجانين.

يروى [١] .

أنه كان الرجل إذا خرج من السجن .. يعود إليه حتى يجلس مع يوسف عليه السلام ، و يستمع إليه.

كما أن السجان .. أحبه .. فوَسَّع عليه فيه.

ثم قال له : يا يوسف ..!! لقد أحببتك حبا شديدا.

فقال له يوسف : أعوذ بالله من حبك ..!!
فقال له : و لم ذلك ..؟
فقال : أحبني أبي .. ففعل بي أخوتي ما فعلوه !
و أحبتني سيدتي.. فنزل بي ما ترى ..!!!

* * *

وهذا درس تربوي ٢ : يرينا أن أثر القدوة والسلوك ، أقوى كثيرا من أثر الكلمة والموعظة فقط ، دون قدوة تؤازرها ، وسلوك يؤكدها ، ويُحَبِّبُ في الالتزام بالمقصود منها.

---

١ ـ القرطبي ٩/ ١٨٨، ١٨٩
٢ ـ الدرس رقم ٣٨

ثم كان قدر الله تعالى و حكمته الخفية ، و ليست المصادفة أن {دخل معه السجن فتيان} و هما : ساقي الملك ، و خبَّازه ، أي صاحب شرابه ، و صاحب طعامه.
و لما صارا قريبا منه ، و عرفاه ، و عرفا عنه ما اشتهر به في السجن.. من الجود والأمانة ، و صدق الحديث ، و كثرة العبادة ، و معرفة التعبير ، و الإحسان إلى كل من في السجن : تآلفا به ، و أحباه حبا شديدا.
و ذات يوم ..!!
قص كل منهما رؤيا رآها في منامه على يوسف عليه السلام ؛ رجاء معرفة تأويلها منه.
{قال أحدهما} و هو ساقي الملك.
{إني أراني أعصر خمرا} أي أعصر عنبا ، و سمى العنب بالخمر باعتبار ما قد يؤول إليه ، أو على أن العنب يسمى خمرا عند البعض ، كما هو الحال عند أهل عمان ١ .
{و قال الآخر} و هو الخباز.
{إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه}
ثم قالا له مجتمعين ، أو كل واحد منهما على انفراد :
{نبئنا بتأويله} أي : أخبرنا بتأويل هذا الذي رأيناه في منامنا.
ثم قالا معللين السبب في اختيارهما له ، و قصهما عليه هذه الرؤى:
{إنا نراك من المحسنين} أي : الذين عرف عنهم الإحسان إلى من في السجن ، واشتهر عنهم صفات المحسنين ، و هي الجود ، و الأمانة ، و صدق الحديث ، و كثرة العبادة.

أو من المحسنين في العلم ، الذين يحسنون تأويل الرؤيا؛ بسبب علمهم بها .
و هنا ..
تدفعه ثقتهما فيه ، و حسن ظنهما به ؛ لأن يبدأ في عرض أصول الدعوة.
نعم ..
ينتهز يوسف هذه الفرصة -التي أتت إليه- لِيَبُثَّ في السجن و السجناء العقيدة الصحيحة.

---

١ ـ ابن كثير سورة يوسف

وهذا درس تربوي ١ ينبغي أن يعيه الدعاة ..!!
حيث لا ينشغل يوسف- حتى و هو في السجن- عن تصحيح العقيدة الفاسدة ، و بيان الأوضاع الفاسدة .. القائمة على حق الربوبية للحكام الأرضيين ، و جعل الناس بالخضوع لهم أربابا يزاولون خصائص الربوبية ، و يصبحون فراعين ٢ .
و لا يدخل يوسف في أمر الدعوة مباشرة.
بل كان على درجة عالية من الكياسة ، و فهم الواقع ، و معرفة حال المتلقي.

و هذا درس تربوي ٣ وفهم جيد ينبغي أن يكون عليه الدعاة دائما.
إذ يبدأ مع الفتيين من موضوعهما الذي يشغل بالهما.
فيطمئنهما ابتداء إلى أنه سَيُؤَوِّلُ لهما الرؤى.
و بذلك : يكسب ثقتهما -منذ اللحظة الأولى- فيه ، و في قدرته على ذلك.
و لكن .. و هو يطمئنهما إلى ذلك ..!!
يكون بأسلوب فيه مدخل إلى ما يريد من عرض دعوته.
حيث يبين لهما : أن ربه علمه علما لدنيا خالصا ، جزاء على تجرده لعبادة الله وحده ، و تخلصه من عبادة الشركاء ، هو و آباؤه من قبله.
و بهذا .. كسب ثقتهما فيه و لدينه ، و هيأ نفسيتيهما لقبول ما سيعرضه عليهما.
و يلاحظ هنا :
أن وحي الرسالة : جاءه بعد دخوله السجن.
كما أن وحي الإلهام : جاءه بعد إلقائه في غيابة الجب.
و بهذا :علم أن الله تعالى ، جعل له في كل محنة ظاهرة ، منحة باطنة.

كما اتَّضَحَ انه : في كل بداية محرقة نهاية مشرقة٤ .

وهذا درس تربوي ٥ . . نستفيد منه : أنه لا ينبغي أن يجزع الإنسان لأي شيء يصيبه ، بل عليه أن يحتسب و يصبر ، فهو لا يدري ماذا يخبئ الله له وراء هذا الابتلاء ..!

* * *

١- الدرس رقم (٣٩)
٢- الظلال ١٢ / ١٩٨٨
٣- الدرس رقم (٤٠)
٤- المنار ١٢/ ٢٥١
٥- الدرس رقم ٤١

ثم قال لهما :
{لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما}
و هذه أولى علامات الصدق ، و بداية درجات كسب الثقة.
و هي الإخبار عن الغيب بالنسبة للطعام.
و ذلك من باب التأكيد على القدرة على تأويل رؤييهما ؛ ليطمئنا ، و من باب كسب الثقة ، ليصل إلى ما يريد في دعوته.
و يصير المعنى : أنني سوف أخبركما لا عن تأويل ما رأيتماه فقط ، بل سأخبركما – أيضا والآن - عن أوصاف و كمية ما يأتيكما من الطعام، قبل الإتيان به.
و يشير هنا إشارة خفيفة إلى توحيد الله ، حيث يقول {ترزقانه}.
و هذا الإخبار ، سواء كان بالنسبة للطعام ، أو بالنسبة للرؤيا هو :{مما علمني ربي}
أي : ليس هو من باب الكهانة ، و العرافة ، و التنجيم ، إنما هو تعليم من ربي لي ، و وَحْيٌ منه إليَّ.
ثم استمر مواصلا في تقديم الأهم على المهم.
حيث بين لهما سر تعليم الله له ذلك ، و اختصاصه به ، و إنعامه عليه.
إذ قال {إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله و هم بالآخرة هم كافرون}

و هذا درس تربوي ١ و طريقة يجب أن يتبعها كل ذي عقل مع الفسقة و الجهلة إذا استفتاه واحد منهم.
إذ عليه : أن يقدم الإرشاد و النصيحة أولا.
ثم يدعوه إلى ما هو أولى به ، و أوجبه عليه ، مما استفتى به٢ .
ثم يفتيه فيما سأل عنه ، أو استفتى فيه.

❋❋❋

و قد بدأ بالتبري من ملة الكافرين الذي لا يؤمنون بالله و لا باليوم الآخر.
{تركت} و هذا يسمى ترك الإعراض ، و هو الذي لم يلامس صاحبه الشرك قط.
و هناك ترك الانتقال ، و هو الإيمان بعد كفر.

و الإيمان بالله ، و التصديق باليوم الآخر :
هما أمران اتفقت عليهما جميع الشرائع ، و دعت إليهما جميع الأنبياء.

١ـ الدرس رقم ٤٢ ٢ـ روح المعاني ١٢/ ٢٤٠

ثم يمضي يوسف عليه السلام – بعد هذه التخلية – في بيان التحلية ، و هي معالم الإيمان الذي يتبعه هو وآباؤه :
إذ يقول :
{و اتبعت ملة آبائي إبراهيم و إسحق و يعقوب}
و هي : الإيمان بالله ، و اليوم الآخر.
و هي : ملة التوحيد الخالص الذي لا يشرك صاحبه بالله شيئا.
و كأنه عليه السلام يقول :
لقد تركت و هجرت طريق الكفر و الشرك و الضياع و الضلال ، و سلكت طريق هؤلاء المرسلين ، صلوات الله عليهم أجمعين.
و من سلك طريق المرسلين ، وأعرض عن طريق الضالين : فإن الله يهدي قلبه ، ويعلمه ما لم يكن يعلم ، و يجعله إماما يقتدى به في الخير ، و داعيا إلى سبيل الرشاد١ .
و هذا الطريق مفتوح دائما و أبدا لكل من أراد أن يسلكه ، و يعبر منه إلى مرضاة مولاه.
{ما كان ينبغي لنا أن نشرك بالله من شيء}
أي: ما يصح أو يجوز أو يستقيم لنا أن نشرك بالله شيئا ، مما يشركه الناس مع الله تعالى .. إذ كله ضلال ، سواء كان قليلا أو كثيرا ، ظاهرا أو خفيا.
و هذا الإبعاد عن الشرك ، و النجاة من الوقوع في أية صورة من صوره
{من فضل الله علينا} و إنعامه بنا.
و هكذا : رد نعمة العلم ، و نعمة الإيمان إلى الله تعالى.
{و على الناس} كذلك ، حيث إننا مكلفون بإعلامهم و إبلاغهم و دعوتهم إلى التوحيد.
و لهذا ..

فالإيمان فضل من الله ، و التيسير للدعوة إليه فضل من الله.
{و لكن أكثر الناس} لا يعرفون هذا الفضل ، و هذا الإنعام علينا نحن معاشر الأنبياء ، و عليهم كذلك.
و لذا فهم {لا يشكرون} الله ، على هذه النعم ، و على إرسال الرسل إليهم ليرشدوهم إلى ما فيه إنقاذهم و إرشادهم ، بل {بدلوا نعمة الله كفرا و أحلوا قومهم دار البوار}.٢
و إلى هنا ..

١ـ ابن كثير ٢ ـ ابراهيم ٢٨

و قد رسخ يوسف عليه السلام في أذهان الفتيين عدة أمور، وجلها دروس تربوية ١ نحتاج إليها .
أولها : أن ثقتهما فيه قد جاءت في محلها ، إذ هو يعرف تأويل رؤياهما و أكثر منها.
ثانيا : أن هذه المعرفة ليست كهانة و لا تنجيما ، كما يفعل أهل هذا الزمان ، بل هي بوحي يوحى إليه من ربه سبحانه و تعالى ، الذي أسلم يوسف أمره إليه ، و توكل في جميع شئونه عليه.
ثالثا : أن هذه المعرفة جاءت بعد تركه للكافرين ، و اتباعه طريق المهتدين.
رابعا : أن التخلية مقدمة على التحلية .. {تركت ملة قوم} و {اتبعت ملة آبائي}.
خامسا : أن طريق الأنبياء واحد ، و لا خلاف في أصول العقيدة.
سادسا : أن الأنبياء شأنهم الاستقامة و التوحيد ، و لذا فاتباعهم واجب ، و الأخذ عنهم فلاح.
سابعا : وجوب رد الفضل لله تعالى في كل نعمة ، و من ثم وجوب الشكر له على كل فضل.
ثامنا : أن فضل الله و إنعامه على أنبيائه و على الناس كذلك غزير وفير {من فضل الله} و من للتبعيض.
تاسعا : أن أكثر الناس لاهُون عن هذا الفضل و رَدِّهِ إلى صاحبه ؛ و لذا فهم لا يشكرون.
و من هنا .. فلا ينبغي أن تكونوا من هؤلاء الذين لا يشكرون ، إن كنتم تريدون دوام هذا الفضل ، و زيادة هذه النعم.
عاشرا : أن الطعام - وقياسا عليه كل شيء - ليس من صنعنا ولا من عملنا ، بل نحن أخذنا في الأسباب فقط ، أما النتيجة و الفضل : فهو من الله تعالى.
حيث يقول {ترزقانه} و لم يقل: تصنعانه ، أو تجلبانه ، أو يُصْنَع لكما.

حادي عشر : أن هذه الأمور التي عرضها عليهم ، و التي سوف يعرضها . . أهم من إجابة ما طلبا معرفته ، حيث إن أمور الدين ينبغي أن تكون مقدمة على أمور الدنيا.

ثاني عشر : أنه عالج مفهوما خاطئا يتعلق بالكثرة ، التي يعتز بها كثير من الناس ، حيث إنه ليست الكثرة دائما على الصواب ، أو دليلا على الصواب.

و بهذا: أصبحت نفسية الفتيين و عقليتهما مهيّأة لقبول ما سوف يعرضه عليها صراحة من أمور عقيدة القوم ، و بيان فسادها ، و تقديم الصالح بدلا منها.

و ذلك ما سوف نعرفه في المشهد التالي.

١ـ الدرس رقم (٤٣)

المشهد الثانى

(إن الحكم إلا لله)

(من الآية ٣٩ إلى نهاية الآية ٤٢)

(أ) مضمون المشهد .

كر يوسف عليه السلام ـ بعد عرض أصول دعوته في المشهد السابق ـ بالهجوم العفيف ، والانتقاد الخفيف لما عليه القوم من عقيدة باطلة ، مثبتابدلا منها دعائم الدين القيم ، الذي ينبغي اتباعه.

وهكذا . .عرض فقط ، وبيان واضح، وحجة قوية ،

دون إرغام ، أو إكراه ، أو مساومة .
وبعد إن انتهى من عرض الأهم ، وهو ما يتصل بالعقيدة : أخذ في الحديث معهما على المهم ، وهو ما يتصل بتفسير ما رأياه .

(ب) آيات المشهد .

يقول تعالى:

يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ
ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم
مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ
إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾
يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ
فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾
وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ
ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾

(ج) التفسير.. والدروس التربوية .

في هذا المشهد :
نرى أن يوسف عليه السلام بعد أن هيأ نفسية الفتيين و عقليتهما للسماع و الفهم والقبول ..!!
و بعد أن وجدهما يستمعان و يتفهمان ، و يتقبلان ..!!
قد أقبل عليهما ، و تلطف معهما أكثر و أكثر ، و تقرب إليهما ، إذا قال لهما :
{يا صاحبي السجن} أي : يا صديقيّ في السجن.
و هي عبارة توحي بالتودد إليهما ، و إخلاص النصح لهما ، بما سيلقيه عليهما.

و من هذه العبارة يبدو هذا الدرس التربوي الهام ١ :

وهو : وجوب ترفق الداعي مع المدعو ، و ضرورة التحبب و التودد إليه.
مثل : تكريمه بما يليق به و لا يعد نفاقا له ، و مناداته بأحب الأسماء إليه .. الخ.
فإن ذلك مما يفتح للداعي مغاليق القلوب، ويدخل نور دعوته إلى سراديب الفؤاد.

❃❃❃

و بعد هذا الترفق ..!!
و بعد فتحه لأقفال قلوبهما ..!!
أقبل عليهما مبينا - بكل وضوح - اهتزاز أساس عقيدتهما ، و فساد أوضاعها ، ومفاهيمها ، و تصوراتها.
إذ قال لهما :
{أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار} ؟!!
أي : خبراني بربكما .. أيهما هو الموافق للفطرة النقية السليمة المستقيمة ..؟
أن يكون لهذا الكون إله واحد ، لا شريك له ، و لا نِدَّ ، و لا معارض ، كامل الحرية فيما خلق ، بل كامل التصرف فيما خلق ، وفيمن خلق ؟

أو أن يكون هناك آلهة متعارضون ، متشاكسون ، أحدهم يريد شيئا و الآخر خلافه ، مما يؤدي إلى فساد هذا النظام الكوني البديع .. الخ ؟
و قد أضرب القرآن عن ذكر إجابة هذا السؤال لوضوحها.
إذ أن إجابة هذا السؤال الواضحة جدا هي :

١ـ الدرس رقم (٤٤)

أن يكون الرب هو الله الواحد القهار : خير.
ثم كرَّ بالنكير على ما يعبدون من دون الله الواحد القهار ، ببيان أنهم و آباءهم هم الذين اصطنعوا ما يعبدون ، و هم الذين أطلقوا عليها أسماء الآلهة ، و أنها في حقيقة الأمر وواقع الحال : من صنع خيالهم ، و ما أنزل الله بها من سلطان.
إذ قال {ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم و آباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان}.
أي : لا حجة لكم في عبادتها من دون الله ، و لا علة لكم في اتخاذها آلهة من دون الله.

❋❋❋

و إلى هنا : و تكون التخلية قد تمت مرة أخرى ، حيث بين بشكل واضح لا خفاء فيه فساد معتقداتهم.
و منه يفهم بالتالي : وجوب التخلي عن هذه العقيدة الفاسدة ، التي اصطنعوها ،و التي يتمسكون بها.
و منه ينتقل إلى التحلية: بوضوح الدعوة ، و الدعوة الواضحة.
إذ يقولها صريحة لا لبس فيها ، واضحة لا خفاء فيها ، قوية لا ضعف في عرضها.
{إن الحكم إلا لله}
أي : إنّ الحكم لا يكون إلا لله ، إذ هو مقصور عليه سبحانه بحكم ألوهيته ، فالحاكمية من خصائص الألوهية.
{أمر ألا تعبدوا إلا إياه}
أي : أن العبادة لا تكون -كذلك- إلا لله.
و العبادة : هي بالمعنى العام الشامل.
و نعني بذلك : الإذعان و الخضوع لله وحده ، و اتباع أمره وحده.
و على هذا .. فالحكم لله وحده ، و العبادة لله وحده : هو الدين الثابت المستقيم ، الذي دلت عليه الأدلة و البراهين.

{ذلك الدين القيم}
و المعنى : هذا الدين الذي أدعوكم إليه ، هو الدين المستقيم ، الدين الذي أمر الله به.
نعم .. هو الدين الذي ينبغي اتباعه ، و لا تجوز بحال من الأحوال مخالفة أحكامه وشرائعه.

و هذا التعبير الذي نطق به : تعبير يفيد القصر .. إذ لا دين قيِّمًا سوى هذا الدين ، الذي يتحقق فيه اختصاص الله بالحكم ، تحقيقا لاختصاصه بالعبادة.
وهذا أمر واضح في غاية الوضوح.
{و لكن أكثر الناس لا يعلمون}
و لأنهم لا يعلمون : فهم به جاهلون.
و يقولون : من جهل شيئا عاداه.
و من هنا : فهم في عداء مع الخالق ، و مع المخلوق ، مع الحق ، و مع أهل الحق.
و بهذه الكلمات القليلة الناصعة الحاسمة المنيرة : رسم يوسف عليه السلام - كما يقول صاحب الظلال،عليه رحمة الله- كل معالم هذا الدين ، و كل مقومات هذه العقيدة كما هز بها كل قوائم الشرك و الجاهلية هزا شديدا.
و إلى هنا ..
و يكون يوسف عليه السلام قد بلغ أقصى غايته من الدرس الذي ألقاه على الفتيين.
و هو درس : مرتبط في مطلعه بالأمر الذي يشغل بال صاحبيه في السجن.
و بالتالي
فهو يبدأ في نهاية هذا الدرس الدعوي الهام : يُؤَوِّلُ لهما رؤياهما ؛ وفاءً لوعده معهما ، و تحقيقا لزيادة الثقة في كلامه كله.
إذ يقول بكل عطف و مودة مرة أخرى :
{يا صاحبي السجن}
و هكذا يعيد على مسامعهما هذا النداء الموحي بالمحبة و الصداقة ، و كأنه يستفيقهما من تفكير قد استغرقهما ، و يستدعيهما به من نسيان لرؤياهما.
و هو في نفس الوقت : يؤكد على حبه لهما ، و إشفاقه عليهما.
ثم يقول :
{أما أحدكما فيسقي ربه خمرا} و هو الذي رأى أنه يعصر خمرا.
و قد أبهمه و لم يعينه : لئلا يحزن الآخر.
{و أما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه} و هو الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزا.
ثم أعلمهما أن ذلك واقع لا مَحَالَة ، فقال :

{قضي الأمر الذي فيه تستفتيان}
روي :أنه لما فسر لهما على هذا الشكل .. قالا له : " مارأينا شيئا" ..وهنا قال ذلك ردا عليهما.

و معنى ذلك : أنه قد فُرِغَ من هذا الموضوع ، و بُت فيه ، و أن ذلك واقع لا محالة.
هذا ..
و بعد أن فرغ يوسف عليه السلام في عرض دعوته على الفتيين ..!!
و بعد أن فرغ كذلك من تفسير رؤييهما ، التي تبين من تفسيرهما : أن صاحب واحدة منهما ناج من الموت ، و أنه سيعود كما كان ساقي الملك ..!!
{قال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك}
أي : اختلى به بعيدا عن زميله ، و طلب منه أن يذكر قصته عند الملك.
و ذلك : حتى يعرف الملك قصته ؛ فتظهر براءته ؛ فيخرج من هذا السجن الذي ألقي فيه ظلما.

* * *

و يتحقق ما أول به يوسف الرؤيا ..
و يخرج الذي ظن -أي تيقن- أنه ناج منهما ، من السجن.
و لا يذكر القرآن ذلك.
و لم ينفذ الذي نجا منهما ، وخرج من السجن ..وصية يوسف .
ذلك أنه نسي الدرس الذي لقنه له يوسف في السجن.
و نسي بالتالي ذكر ربه ، في زحمة القصر ، و ملهيات حياة القصور ، بعد أن عاد إليها.
و نسي كذلك : أمر يوسف كله.
{فأنساه الشيطان ذكر ربه}
و لو وعى درس يوسف : لتذكر ربه ..!!
و لو تذكر ربه : لذكر قصة يوسف للملك ..!!
و لكن ..!!
لأنه نسي ذكر ربه : فقد نسي ذكر يوسف.
{فلبث في السجن بضع سنين} أي مكث يوسف حبيسا في السجن بضع سنين ،و هي مدة من الزمن.

و هذه المدة التي قضاها يوسف في السجن : اختلف حولها العلماء ، و أكثر أقوالهم أنها سبع سنين.

و فيما فعله يوسف مع الذي نجا : يبدو درس تربوي هام ١ .

يقول الإمام القرطبي : في هذه الآية دليل على جواز التعلق بالأسباب ، و إن كان اليقين حاصلا ، حيث إن الأمور بيد مسببها ٢.

و يقول الأستاذ سيد : و قد شاء ربه أن يعلمه كيف يقطع الأسباب كلها ، و يستمسك بسببه وحده .

فلم يجعل قضاء حاجته على يد عبد ، و لا سبب يرتبط بعبد.

و كان هذا من اصطفائه و إكرامه لنبيه عيه السلام.

و من هذا النقل و ذاك :

نرى : جواز الأخذ بالأسباب ، و لكن دون تعلق أو اعتماد على هذه الأسباب ، بل يكون التعلق و الاعتماد على مسبب هذه الأسباب ، و هو الله سبحانه و تعالى.

***

و إلى هنا و نترك يوسف في محنته بالسجن.

و ننتقل إلى آيات المشهد التالي.

١ـ الدرس رقم (٤٥)
٢ـ القرطبي ٩/ ١٩٨

المشهد الثالث

(إني أرى سبع بقرات سمان)

(من الآية ٤٣ إلى نهاية الآية ٤٦)

(أ) مضمون المشهد .

تنقلنا آيات هذا المشهد إلى مجلس الملك ، وهو يقص رؤيا رآها في منامه فأفزعته فزعا شديدا ، وهو الآن يطلب من الكهنة والعرافين حوله تفسيرهم لها .

ولكنهم . . يعجزون ، ويقولون : إنها أضغاث أحلام .

وهنا : يتذكر فتى السجن" سابقا ". . يوسف عليه السلام ، ومدى علمه بتفسير الرؤى ، ويطلب الذهاب إليه ، ويذهب بعد غَيْبَةٍ طالت ، ويقص على يوسف رؤيا الملك .

(ب) آيات المشهد .

يقول تعالى :

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾

يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾

(ج) التفسير.. والدروس التربوية .

و الآن ..!!

نحن في مجلس الملك.

و كان ملك مصر في أيام يوسف عليه السلام : واحد من الهكسوس ، كما يقول المؤرخون ١.

و قد رأى هذا الملك: رؤيا أهمته و أخافته.

و لذا .. جمع الكثير من أفراد الحاشية ، و من الكهنة ، و العرافين ، و المتصلين بالغيبيات .. طالبا منهم تأويل رؤياه هذه.

و مما يطيب ذكره ، و يجدر نقله : ما ذكره الإمام ابن كثير في تفسيره.

حيث يقول : هذه الرؤيا من ملك مصر ، مما قدر الله تعالى ، أنها كانت سببا لخروج يوسف عليه السلام من السجن مكرما معززا ٢ .

و يقول الإمام القرطبي : لما دنا فرج يوسف عليه السلام : رأى الملك رؤياه ، فنزل جبريل ، فسلم على يوسف ، و بشره بالفرج.

و قال : إن الله مخرجك من سجنك ، و ممكن لك في الأرض ، يُذّل لك ملوكها ، و يطيعك جبابرتها ، و معطيك الكلمة العليا.

و ذلك : بسبب رؤيا رآها الملك.

و هي كيت و كيت ..!!

و تأويلها كذا و كذا٣ .

و القرآن الكريم : يذكر هذه القصة بأسلوب غاية في الدقة و البلاغة و الفصاحة.

فإلى ساحته نعرض لبيان هذا الموضوع.

{و قال الملك إني أرى} أي : رأيت ، و عبر بالمضارع عما مضى لاستحضار الصورة ، و كأنه يراها الآن ماثلة أمامه فيحكيها مما يعرض أمامه.

و لكن ما الذي رآه هذا الملك ..؟

رأى {سبعَ بقرات سِمان يأكلهن سبعٌ عِجاف و سبعَ سنبلات خضر و أخر يابسات}

أي رأى الملك في منامه : سبع بقرات سمان ، و رأى سبع بقرات أخرى مهازيل عجاف جائعات ، يأكلن السبع بقراتٍ السمان ..

١ـ انظر المنار ١٢/ ٢٦١ ٢ـ ابن كثير : سورة يوسف ٣ ـ تفسير القرطبي ٩/ ١٩٨

كما رأى في نفس المنام : سبع سنبلات خضر ، و سبع سنبلات أخرى يابسات.
و لم يفهم الملك لهذه الرؤيا معنى ، و لا عرف لها مغزى.
و لكنه اهْتَمَّ منها ، و خاف من مغزاها الذي لم يفهمه.
و لذلك جمع حاشيته و العرافين عنده و الكهنة في مملكته ، و قال لهم :
{أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون} أي : أفيدوني بمعناها ، و دلوني على مغزاها ، إن كنتم تجيدون تعبير الرؤيا ، و بيان مآلها و عاقبة أمرها.
و اجتمع الكهنة و العرافون و المنجمون . . و تفكروا ، و تشاوروا ..!!
و قلبوا هذه الرؤيا على وجوهها ، و على ما يعرفون من معلوماتهم و علومهم..و لم يدركوا لها معنى ، و لم يعرفوا لها مغزى ..!
و لما لم يدركوا ..!! و لما لم يعرفوا ..!!
{قالوا أضغاث أحلام} أي أن هذا الذي رأيت هو من الأخلاط و الأباطيل ، التي تتكون من حديث النفس و وسوسة الشيطان.
و ما كان من هذا الباب : لا نعرفه ، إنما نحن نعرف التأويل للمنامات الصحيحة فقط ، وليست الباطلة كهذه.
و لذا قالوا :
{و ما نحن بتأويل الأحلام بعالمين}
و إلى هنا ..
{و قال الذي نجا منهما و ادكر بعد أمة } أي تذكر بعد فترة من الزمن ، ونطق .
و تحقق قدر الله تعالى ، و تذكر فتى السجن - الذي كان بصحبة يوسف عليه السلام فيه – تذكر يوسف ، و ما وصاه به ، و ما هو عليه من العلم الحقيقي بتأويل الأحلام والرؤى.
و لما تذكر ..!!
و لما وجد الفرصة سانحة لتنفيذ الوصية ..!!
و لما وجد الباب أمامه مفتوحا لتحقيق رغبة الملك في معرفة تأويل رؤياه ..!!
لم يسكت ، بل نطق قائلا :
{أنا أنبئكم بتأويله} أي : أنا أعرف من ينبئكم بتأويل هذا الحلم.
ثم سارع قائلا :
{فأرسلون} أي : أرسلوني إليه ، لآتيكم من عنده بالخبر اليقين ، و التأويل الحقيقي.
و يلاحظ : أنه لم يصرح باسمه لهم و لا بوصفه ، حتى لا يرسلون غيره ، و يسبقونه بهذا الفضل عند سيده و مليكه.

و نظرا لشدة اهتمام الملك بمعرفة تأويل هذه الرؤيا ..!!
و كذلك : نظرا لعجزهم جميعا عن تأويل هذه الرؤيا ..!!
فقد وافقوا على اقتراحه .. و أرسلوه.
و ذهب الساقي إلى السجن.
و قابل يوسف و قال له :
{يوسف أيها الصديق} أيها البليغ في الصدق ، الذي لم يُجَرِّب عليه أو يَعْرف عنه أحد كذبا ، بل أيها الصادق - كذلك- في تأويل الرؤيا.
{أفتنا في} هذه الرؤيا اتي رآها الملك ، و عجز عن معرفة تأويلها الجميع.
ثم قص عليه الرؤيا: بنفس الألفاظ والحروف التي حكاها الملك لحاشيته وعرافيه.
أفتنا في :
{سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف و سبع سنبلات خضر و أخر يابسات}
أي : أفتنا و أفدنا و أعلمنا بتأويل هذه الرؤيا.
{لعلي أرجع إلى الناس} الذين ينتظرونني بفارغ الصبر ، و كثير الشك في أن أعود لهم بما وعدت ، و بما رجوت.
{لعلهم يعلمون} أي : راجيا أن يعرفوا الحق في أمر هذه الرؤيا ، بدلا من وصفهم لها بأنها {أضغاث أحلام}.
و راجيا -كذلك- أن يعرفوا فضلك و مكانتك ، و مكانك ، فيعرفوا قصتك ، و براءتك مما نسب إليك ظلما و زورا ، وأُلقِيتَ بسببه في غياهب السجن قهرا و فجورا.
و إلى هنا ..
و ألقي حبل النجاة إلى يوسف في سجنه.
و بزغ شعاع النور في ظلام مكانه.
و هبت نسمات الحرية على أيام اعتقاله.
وهيا بنا إلى المشهد التالي ، لنعرف :
ماذا قال هذا الفتى ليوسف عليه السلام . . ؟
وماذا قال له يوسف عليه السلام . . ؟

المشهد الرابع

(قال تزرعون سبع سنين دأبا)

(من الآية ٤٧ إلى نهاية الآية ٤٩)

(أ) مضمون المشهد .

رأى يوسف فتى السجن ، وزميله السابق ، الذي نسيه طيلة هذه الفترة السابقة . . ! !
وسمع يوسف من هذا الفتى رؤيا الملك ، وعرف منه أنهم يريدون بفارغ الصبر تأويلها . . !!
ودون تباطؤ ، أو مساومة ، أو ملامة ، أو عتاب : يفسر يوسف للفتى رؤيا الملك ، بتفسير عجيب غريب .

(ب) آيات المشهد .

يقول تعالى

قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾

(ج) التفسير . . والدروس التربوية .

ودخل الفتى على يوسف عليه السلام . . !!
وعرض على يوسف الأمر ، وحكى له الموضوع ، وقص عليه رؤيا الملك ..!!
و لكن ..!!
أليس هذا الفتى هو الذي كان مع يوسف في السجن قبلا ، و هو الذي رأى رؤياه و فسرها له يوسف عليه السلام ، و هو الذي طلب منه يوسف أن يذكره و قصته عند الملك ، فلم يفعل ؟
ما الذي جاء به اليوم ..؟!!
إنه لم يأت إلا لمصلحة الملك.
بل لم يأت إلا لمصلحته هو عند الملك.
على كل حال : فقد جاءت الفرصة ليوسف ، و أصبحت عند قدميه.
فليشترط ما شاء ، خاصة و هو البريء في هذا المكان التابع للملك ..!!
أو على الأقل : فليعاتب فتى السجن السابق على هذا الإهمال الذي دام سنوات.

فهل فعل يوسف شيئا من هذا ..؟!!
كلا .. و ألف كلا !!
لم يفعل هذا ، و لا شيئا منه.

بل فسر الرؤيا مباشرة ، دون تعنيف ، أو عتاب ، أو اشتراط ، كما زاد على ما طلبوا ، حيث عبر الرؤيا ، ووضح الأزمة الاقتصادية القادمة ، أو المقدمة عليها البلاد و أهلها ، و اقترح الحل للخروج منها ، والنجاة من ضررها و شرورها ، و زاد أكثر و أكثر ، حين بشرهم بالفرج بعد الضيق ، و باليسر بعد العسر.

حيث

{قال تزرعون سبع سنين دأبا} أي : ازرعوا - فهو أمر في صورة الخبر- الأرض بأنوع النباتات ، سبع سنين متواليات ، بجد و اهتمام.

و كلما زرعتم ..

{فما حصدتم} منه في كل عام .

{فذروه في سنبله} أي : اتركوه في سنبله ، و هي أفضل طريقة لحمايته من السوس ، و أصون طريقة لحفظه.

{إلا قليلا مما تأكلون} في تلك السنين ، فاستخرجوه من سنبله ، و أعدوه خبزا لتأكلوا منه ، و لا تسرفوا في هذا القليل الذي تعدونه لطعامكم خلال هذه السنوات السبع المتواليات.

و هذا هو تأويل السبع البقرات السمان ، التي وردت في رؤيا الملك.

و أكمل قائلا :

{ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد} أي : بعد السنوات السبع السابقة .. تأتي سبع سنوات ماحِلات مُمْحِلات ، لا تنبت الأرض فيهن شيئا مما يلقى إليها و يزرع فيها.

و نظرا لعدم إنتاج الأرض في السبع السنوات شيئا ، فإن أهلها لا يجدون ما يأكلونه فيهن ، إلا مما أنتجته الأرض في السنوات السبع السابقة ، و حصد ، و ترك في سنبله.

و لذلك قال :

{يأكلن ما قدمتم لهن} أي : يأكل أهل البلاد، أو أهل هذه السنوات السبع ، في هذه السنوات السبع مما تحفظتم عليه قبلا.

{إلا قليلا مما تحصنون} فلا يبقى إلا القليل الذي تتركونه في الحصون.

و على هذا النحو .. و بهذا التعبير : يظهر أن البلاد وِفْقَ هذه الرؤيا ، بل وفق تفسيرها ، مقدمة على أزمة اقتصادية شديدة ، و مجاعة مخيفة ، لا ينقذ منها إلا الحكمة الشديدة في إدارة البلاد إبَّانَ هذه الأزمة ، بل إبَّانَ إدارة الأزمة نفسها.

و لم يكتف يوسف عليه السلام بتفسير ما طلب منه و قُص عليه ، بل إنه - و بوحي من الله تعالى- بشر الملك و أهل البلاد بالمخرج من هذه الأزمة ، و بالفرج من هذه الشدة ، و باليسر بعد العسر ؛ إذ قال :

{ثم يأتي من بعد ذلك} أي : بعد هذه السنوات الأربعة عشر .. يأتي على البلاد وأهلها

{عام فيه يغاث الناس} فيأتيهم الرخاء ، و الرزق الواسع ـ بعد الشدة و المجاعة ـ في هذا العام.

{و فيه يعصرون} أي : يصلون إلى حد فيه يتفكهون ، بل تزيد عندهم الفاكهة لدرجة تجعلهم يعتصرونها للشرب و للحفظ ، و كذلك لجميع الأغراض المتعلقة بذلك.

و إلى هنا ..

و ينتهي تفسير يوسف عليه السلام لرؤيا الملك.

وقد وضع يوسف عليه السلام خلال تفسيره هذا لرؤيا الملك : خطة زراعية اقتصادية تموينية " خمس عشرية " لإنقاذ البلاد من الأزمة الطاحنة ، التي تُنْبِئُ عنها هذه الرؤيا .

وهذا درس تربوي هام .١

نتعلم منه أهمية التخطيط .. في كل شيء ، في الصغير وفي الكبير على حد سواء ، للأفراد والجماعات ، للبيوت والمؤسسات والدول ، بصفة عامة .

وهو في الدعوة إلى الله لأبناء الحركة الإسلامية ـ بصفة خاصة ـ ضرورة قصوى .

حيث إنه من السنن الجارية في الكون من حولنا: أن النتائج مرتبة على المقدمات ، وأن الأسباب قائمة على المسببات .

---

١ ـ الدرس رقم (٤٦)

كما أنه لكل غاية شريفة وسيلة نظيفة ؛ تؤدي إليها ، وما لم نعرف الوسيلة ، ونحدد الغاية ، ونوضح الطريق الموصل بين الغاية والنتيجة : فلن نصل إلى نتيجة صحيحة ؛ لأن غياب التخطيط .. يؤدي إلى التخبط في العمل ، أو التناقض فيه ، وقد يؤدي ذلك إلى أن نكون كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا .١

وبهذا ..
ولأن التخطيط : أخذ في الأسباب المامور بها شرعا!!!!
يتبين خطا من يظنون أن التخطيط ينافي الدين ، ودعوته إلى التوكل على الله .٢

و يخرج الفتى من عند يوسف عليه السلام ، و قد تحقق له ما أراد.
و يعود إلى الملك و حاشيته بما وعد.
و يقص عليهم ما أخبره و أمرهم به يوسف عليه السلام بخصوص الرؤيا ، و تفسيرها ، و الأزمة ، و كيفية الخلاص منها.
و يستمع الملك و حاشيته لما قاله الفتى !!
و هنا نتساءل ..
ما الذي فعله الملك عندئذ ..؟!!
و هذا ما سوف تتم الإجابة عليه و نعرف تفاصيله في المشهد التالي ..
فإلى آياته الكريمة.

---

١ ـ الشيخ جاسم بن مهلهل آل ياسين .. انظر : مجلة المجتمع .. العدد ١٢٤٩،
وانظر : دروس تربوية من الهجرة النبوية .. درس " ضرورة التخطيط " للمؤلف .

٢ ـ انظر ثقافة الداعية .. للدكتور يوسف القرضاوى ص٣٥ ط . الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية ١٩٨٢ م

المشهد الخامس

(الآن حصحص الحق)

(من الآية ٥٠ إلى نهاية الآية ٥٣)

(أ) مضمون المشهد .

عاد الفتى من عند يوسف للملك بتفسير رؤياه.
ولكن . . ما هذا التفسير العجيب الغريب . ؟ !!
قال الملك : ائتوني بصاحب هذا التفسير لرؤياي .
وأبى يوسف عليه السلام أن يخرج من السجن ، حتى يعاد التحقيق في قضيته ، وتفتح ملفاتها مرة أخرى من جديد . !!
وأمام إباء الدعاة ، وعزة نفوسهم،وقوة حجتهم ، ووضوح دعوتهم : تناسى الملك رؤياه، وفتحت الملفات ، وأعيد التحقيق في قضية يوسف مع امرأة العزيز؛ لتظهر براءة الدعاة ، وطهارة القدوة .

(ب) آيات المشهد .

يقول تعالى

وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾

۞وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾

(ج) التفسير . . والدروس التربوية .

من الطبيعي : أن الرجل بلّغ الملك و حاشيته ما قاله له يوسف عليه السلام.
و من الطبيعي : أنهم حينما سمعوا هذا التأويل عرفوا أن الأمر جد خطير.

و من الطبيعي ثالثا : أنهم أدركوا أن صاحب هذا التأويل ذو علم واسع ، و تدبير حكيم نافع ، لا يستغنى عنه في حَالَيْ الشدة والرخاء.

و قد سكت القرآن عن بيان ذلك.

و اكتفى بنتيجته الواضحة في قوله تعالى :

{و قال الملك} حينما سمع تأويل رؤياه على هذا النحو العجيب البديع :

{ائتوني به} أي : أحضروا لي صاحب هذا التأويل ، لأسمع كلامه بأذني ، و أختبر تفصيل رأيه و درجة عقله بنفسي.

و طبعا .. لا بد من تنفيذ هذا الأمر الملكي.

و ذهب الرسول الملكي إلى السجن - و لم يبين القرآن هل هو الساقي أو غيره- ليبلغ يوسف بهذا الأمر، بل بهذه البشرى التي سوف تخرجه من السجن.

{فلما جاء الرسول) و بلغه أمر الملك ..!!

ماذا فعل يوسف عليه السلام ..؟

و هل هنا مجال لمثل هذا السؤال ..؟

لا بد أنه سَيُهَرْوِل فرحا مسرورا بهذا الأمر الملكي ، الذي جاء به البشير ، و الذي سوف ينقذه من غياهب السجن ..!! و الذي قد لا يجود به الزمان مرة أخرى لَوْ تباطأ في تنفيذه ..!!

فهل فعل يوسف هذا ..؟

لا ..

و لكنه ..!!

في أَنَاةٍ و ثقة ، و صبر و يقين ، و حرص على : سلامة القدوة ، و مسيرة الدعوة ، و إظهار الحق.

{قال} للرسول الذي جاءه :

{ارجع إلى ربك} أي : عد إلى سيدك و ملكك الذي أرسلك.

{فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن} أي : اطلب منه أن يسأل و يستفسر ويحقق في موضوع النسوة ،اللاتي قد قطعن أيديهن في بيت امرأة العزيز ، كبير وزرائه ، منذ فترة مضت.

لأني أريد أن تظهر الحقيقة ، وأنا هنا في سجني بعيدا عن مجالس التحقيق.

و أنا واثق في عدل خالقي و مولاي ، و أن الحق سوف يظهر جليا ، و لا وكيل لي إلا الله ، حيث

{إن ربي بكيدهن عليم} و قد صرف عني كيدهن فلم يمسني سوء معهن ، و ربك لا يعلم عن هذا الموضوع ما علم ربي عنه.

و لا أحب أن آتـي الملك و أنـا متهم بقضية عوقبت عليها ظلمـا ، و طـال مُكْثِي فـي السجن بسببها ، و أنا غير مذنب ، حتى يكون إخراجه لـي علـى هذا النحو الآن عفوا منـه ، وصفحا عن خطأ لم أرتكبه.
و هذا تَرَيُّثٌ عجيب من سجين بريء ، طال انتظاره للخروج من ظلمات هذا السجن.

و في هذا التصرف فوائد و دروس تربوية جليلة ١.
منها٢ :
١- دلالتـه علـى صبره و أناتـه ، و جدير بمن لقي مـا لقـي أن يكون صبورا حليمـا ، فكيف إذا كان نبيا ، وارثا لإبراهيم عليه السلام ، الذي وصفه ربه بأنه {أواه حليم} ؟
٢- عزة نفسه ، و حفظ كرامتها ، إذ لم يرض أن يكون متهما بالباطل ، فلم يخرج حتى تظهر براءته و نزاهته.
٣- وجوب الدفاع عن النفس ، و إبطال التهم التي تخل بالشرف ، سواء بسواء كوجوب اجتناب مواقفها.
٤- مراعاته النزاهة و عفة اللسان في حق النسوة ، إذ لم يصرح بشيء من الطعن عليهن ، و ترك أمر التحقيق إلى الملك ، اعتمادا في ظهور الحق على الله تعالى ، و ثقة في نصره للمظلومين ، و في ذلك كذلك : صيانة للمجتمع عن شيوع الفاحشة فيه.. ولو بالكلام.
٥- عدم ذكر سيدته صريحا معهن ، و هي أصل الفتنة ، وفاءً لزوجها ، و رحمة بها ؛ لأن أمر شغفها به : كان وجدانا قاهرا لها.
و إنما اتهمها أولا {هي راودتني عن نفسي} لأنه كان في موقف التهمة عند سيدها، وحال طعنها فيه : و ذلك دفاع عن نفسه ، لم يكن له منه بُدّ.!!
٦- الحرص على طهارة القدوة ، و براءة السيرة لمن يتصدى للدعوة ، لأنه إذا فسدت القدوة : ضاعت الدعوة٣.

١- نعتبرها الدرس التربوي رقم (٤٧)   ٢- انظر المنار ١٢/ ٢٦٥، ٢٦٦   ٣- المؤلف .

٧ - الخشية من أن تظل خيالات القصة ، و ظلال التهمة تلاحقه بعد خروجه ، و يراه الناس -مهما علا شأنه- بتلك العين أبدا ، و يتهامسون من خلف ظهره قائلين : هذا الذي راود امرأة مولاه١.

* * *

هذا ..

و قد ورد في السنة عن النبي ρ أنه قال : "... لو لبثت في السجن ما لبث يوسف : لأجبت الداعي٢.
و في الظاهر : أن الحديث النبوي يتعارض مع موقف يوسف عليه السلام ..!!
فكيف المخرج من هذا الظاهر ..؟
خاصة : وأن النبي ρ مدح يوسف عليه السلام على صبره وأناته وعدم تسرعه في الخروج ..!!
ففي الحديث : "يرحم الله أخي يوسف لقد كان صابرا حليما ، و لو لبثت في السجن ما لبثه : لأجبت الداعي ، و لم ألتمس العذر" ..!!
و بيان المخرج مما لا إشكال فيه إلا في الظاهر فقط٣ :
أن النبي ρ يبين بقوله وجها آخر من الرأي ، و له جهة من الجوْدَة.
يقول : لو كنت أنا .. لبادرت بالخروج ، ثم حاولت بيان عذري بعد ذلك . ا.هـ.
خاصة و أن التارك فرصة الخروج من مثل ذلك السجن : ربما نتج له البقاء في سجنه ، و انصرفت نفس مخرجه عنه ، و إن كان يوسف قد أَمِنَ من ذلك بعلمه من الله : فغيره من الناس لا يأمن ذلك.
ثم يقولون :
فالحالة التي ذهب بنفسه إليها النبي ρ : حالة حزم.
و ما فعله يوسف عليه السلام : صبر عظيم و جلد٤.

١ـ انظر: القرطبي ٢٠٧/٩
٢ـ البخاري ك التفسير باب تفسير سورة يوسف ، مسلم ك الإيمان باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة .
٣ـ انظر : القرطبي ٢٠٧/٩ ٤ـ انظر: نفس المرجع

هذا ما قاله العلماء.
وإن كنت أرى أن ما قاله النبي ρ له ظروفه و حالاته التي يتعين فيها.
وأن ما فعله يوسف عليه السلام له ظروفه و حالاته التي يتعين طلب الصبر من الله تعالى على التحمل والجلد فيها.
إذ يكون هذا التصرف بعينه في لحظة ما : هو المناسب للدعوة و يتحمله الداعي.
كما قد يكون التصرف الآخر- بعينه - في ذات اللحظة : هو المناسب للدعوة ، و يستعين بالله تعالى على تحمل آلامه و الصبر عليها نفس الداعي.

و هو نفس ما وجدناه في مسيرة الدعوة و الدعاة في ذات الموضوع.
ا- فزيد بن الدثنة : الذي خَيَّرُوه وهو مصلوب ليُقتَل ، بين أن يكون هكذا ، و بين أن يكون في بيته وسط أولاده آمنا مطمئنا مطلق السراح على أن يكون النبي ρ مكانه هنا ..
و ما كانوا يريدون سوى سماع كلمة الموافقة على ذلك ، تلفظا فقط ، ليطلقوا سراحه.
و لكنه ما ترخص في نطقها ، و لو بلسانه فقط ، بل قال قولته المشهورة العظيمة الخالدة ، و هو يعلم أنه مقتول مقتول : "و الله لا أحب أن أكون بين أهلي و عشيرتي أنعم بما ينعمون به ، و رسول الله ρ في مكانه الذي هو فيه تشوكه شوكة"١.
وارتفع بذلك علم الدعوة ، وبقيت طاهرة سيرة الدعاة .
ب- و عاصم بن ثابت ، الذي دهمه و زملاءَ ه الأعداءُ في موقعة " يوم الرجيع " ، وأحاطوا به ، و لم يكن هناك أمل في نجاة منهم.
لما طلبوا منهم الاستسلام ، و هو قطعا أفضل من الموت ، فرفض ، لأنه كان قد أقسم على الله أن لا يمس مشركا.
و ظل حتى استشهد.
فماذا حدث له ..؟
هل ترخص في هذا الظرف الحرج إنقاذا لحياته ..؟
لا .. و ألف لا
يقول التاريخ : لما بر لله في حياته بما أقسم عليه : بَرَّ الله له - في مماته- بما أقسم عليه.
حيث لم تمسسه يد مشرك ، لأن السيل قد جرف جثته ، فالتمسوها فلم يجدوها٢..!!

١- سيرة ابن هشام ١٧٢/١ ٢- سيرة ابن هشام ١٧١/٢

جـ- مُلِئَتْ المعتقلات بالدعاة من الإخوان المسلمين ، في عهد من عهود الطغيان ، و طلب منهم فقط- لإخراجهم من ظلمات السجون - مجرد توقيع بالمبايعة للنظام.
فهل ترخصوا إنقاذا لأنفسهم من غياهب السجون ، و التصفية الجسدية فيها ..؟
كلا .. لم يحدث ذلك ، وظلوا صامدين ، و سقط منهم الشهداء ، ليرتفع علم الدعوة ، وتظل طاهرة سيرة الدعاة.
د- وقريبا .. وفي سجون الاحتلال اليهودي للأرض الإسلامية " فلسطين" ظل الرجل المريض المقعد ، حبيسا مدة طويلة يعاني آلام المرض ، ومرارة الاعتقال.

وساوموه كثيرا على الخروج ، نظير كلمة واحدة ينطق بها ؛ لتقف الانتفاضة الإسلامية عليهم.
فهل ترخص الشيخ أحمد ياسين .. ونطقها ، ولو بلسانه فقط ..؟
كلا .. لم يحدث ، وظل صامدا ، ليرتفع علم الدعوة ، وتظل طاهرة سيرة الدعاة.
حتى قدر الله له الخروج رغما عنهم ، و بفضيحة لهم ، و لجهاز مخابراتهم ، و هي ما يعرف بقضية (اغتيال خالد مشعل).

***

و لذلك ..
فإن ما فعله يوسف عليه السلام : هو الأصل في أمر الدعوة و الدعاة.
و لذلك : مدحه الرسول ρ فيما ورد من الأحاديث الشريفة.
و أما ما أخبر عنه النبي ρ عن فعله لو كان مكان يوسف عليه السلام : فهو الرخصة ، التي يباح استعمالها لمن لا يستطيع التحمل ، حيث {لا يكلف الله نفسا إلا وسعها}.
وهذا من روائع هذه الشريعة الغراء.
مراعاة المواقف والظروف ، لصالح الدعوة.
و تقدير مدى تحمل الأشخاص ، لصالح الدعاة.

***

على أية حال : عاد الرسول من عند يوسف عليه السلام إلى الملك ، و أخبره بما قال يوسف.
و يبدو أنه كان ملكا حكيما ، إذ لم يغضب من طلب يوسف هذا ، كما لم يهمله و يسكت عن الموضوع برمته.

بل اهتم به.
وأصدر على الفور أمرا بفتح باب التحقيق في هذا الموضوع.
كما أمر باستدعاء هؤلاء النسوة ، أطراف هذا الموضوع ، واللاتي ذكرهن يوسف عليه السلام إجمالا بقوله {النسوة اللاتي قطعن أيديهن}.
و حضرن جميعا.
و بدأت الأسئلة ..
فـ {قال} الملك بنفسه ، أو المحقق الذي أمره الملك :
س {ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه} ؟ أي : ما أقوالكن في حقيقة موضوع مراودة يوسف..؟

و قد يكون هذا السؤال وُجِّهَ إليهن جميعا مرة واحدة ، كما قد يكون وجه إلى كل واحدة منهن على انفراد ، و حكاه القرآن بصيغة الجمع.

المهم : أن الإجابة كانت مفاجأة ،

على النحو التالي:

ج {قلن) جميعا ، فلم تشذ واحدة في إجابتها ، حتى ولم تمتنع واحدة منهن عن الإجابة ، بل قلن جميعا :

{حاش لله} أي : معاذ الله.

الله أكبر ، لقد برز اسم الله على ألسنتهن ، ما الذي جرى ؟ ما الذي حدث ؟ هل هناك تحول طرأ في هذه الطبقة و في أفرادها ، وفي مفهوماتهم ..؟

على كل حال ..!!

هذه بشارة طيبة ..!!

فلنستمع إلى كامل إجابتهن.

{ما علمنا عليه من سوء} نفي صريح لما اتهم به يوسف.

يا سبحان الله ..!! سبحان مغير الأحوال ..!! سبحان مصرف القلوب ..!!

قالوها الآن ، وهن اللاتي سكتن يوم أن قالت امرأة العزيز أمامهن جميعا و في بيتها {و لقد راودته عن نفسه فاستعصم و لئن لم يفعل ما آمره ليسجنن و ليكونا من الصاغرين} فلم تنطق واحدة منهن لتنكر عليها هذا التَّجَبُّرَ ، و هذا الظلم ، ثم دخل السجن ، بريئا ،و ألقي فيه طويلا ، فلم تتقدم واحدة منهن لتقول كلمة حق لتنقذ بها هذا البريء طوال هذه المدة.

فما الذي غيرهن الآن ..؟

أهو الخوف من الملك ..؟

أهو استمرار المجاملة لامرأة العزيز ..؟

لا .. ليس هذا و لا ذاك.

فلو أنكرن .. ما عرف الملك الحقيقة ، إذ ليس لديه دليل من عند غيرهن عليها.

و ليس الدافع لذلك : هو استمرار المجاملة لامرأة العزيز ، حيث إن امرأة العزيز الآن أصابها ما أصابهن.

فما الذي أصابهن .. حتى تكون الحقيقة من أفواههن ناصعة على هذا النحو ؟ و من أين أتتهن رياح التغير هذه ..؟

إنه الله سبحانه و تعالى ، مقلب القوب ، و مصرف الأحوال.

قد أراد للحق أن يظهر ، و أراد للمغلوب الضعيف البريء الذي احتمى بجنابه أن ينتصر.

و هذه سنة الله تعالى .. إذا انتصر الباطل ساعة : فدولة الحق إلى قيام الساعة.

وهذا درس تربوي جيد ١ .

و لم تختص هذه الرياح بالنسوة فقط ، بل إنها شملت امرأة العزيز.

و يبدو أنها سُئِلَتْ هي الأخرى نفس السؤال ، لأنها صاحبة القضية ، و الطرف الرئيسي فيها ، أو أنها أجابت بنفسها بعدهن إجابة منفصلة ، ليكون الحق واضحا لا خفاء فيه و لا لبس بعد الآن.

حيث :

{قالت المرأة العزيز الآن حصحص الحق} أي : ظهر الحق و أصبح واضحا ، وعُلِمت الحقيقة كاملة.

و قد يكون قولها ذلك بسبب قول النسوة حيث لا مجال إنكارها ، كما يقول بعض العلماء٢.

و إن كنت أرى : أنها قالت ذلك حبا في إظهار الحقيقة ، و خوفا من الله تعالى ، الذي عرفه هذا المجتمع من يوسف ، ومن إيمانه به ، و عرفته هي كذلك بدورها ، و متابعة في الإيمان لهذه الشخصية القوية المؤمنة الصالحة النقية الطاهرة : يوسف عليه السلام.

و يشجع على هذا الفهم : أنها لم تكتف بذلك ، لتتوارى و تبتعد عن الأعين خجلا وخوفا.

بل إنها أتبعت هذا الاعتراف و الإقرار الصريح ، بما هو أكثر منه صراحة في حق نفسها ، مما يؤكد تغيرها إلى الأفضل ، حيث قالت :

١ـ الدرس رقم (٤٨)　　　٢ـ انظر القرطبي ٢٠٧/٩

{ أنا راودته عن نفسه و إنه لمن الصادقين}

الله أكبر ..!!

لقد تابت المرأة ، و صدقت في توبتها ..!!

إذ اعترفت على نفسها ..!!

و أثبتت صدق يوسف في طهارته و براءته ..!!

و بهذا ..

جمع الله ليوسف إظهارا لصدقه :

الشهادة من النسوة ، و الإقرار من امرأة العزيز.

و ذلك : حتى لا يخامر نفس ظنا به ، و لا يخالطها شك في براءته.

ثم استمرت في كلامها ، الذي يشع منه نور الإيمان ، و يؤكد صدق التحول ، وخالص التوبة.

وهو درس تربوي ١: يعلمنا به رب العزة أن لا نتسرع في الحكم على الناس ، إذ العبرة بالخواتيم.
حيث قالت :
{ذلك} أي : قلت هذا الاعتراف الصريح.
{ليعلم} يوسف عليه السلام.
{أني لم أخنه بالغيب} أي : لم أكذب عليه ، و لم أذكره بسوء و هو غائب ، بمجرد انتهاء الموضوع ، و دخوله السجن ، و هذا اعترافي الآن يؤكد صدق كلامي.
ثم قالت ، و قد تحولت من فاجرة أولا ، إلى مسلمة ثانيا ، ثم إلى داعية ثالثا ..
فلنستمع إلى ما قالت :
{و أن الله لا يهدي كيد الخائنين} أي : لا يهدي الله الخائنين ، و لا ينفعهم بكيدهم الذي يكيدونه ، بل إن الخيانة وبال على صاحبها، وضلال وإضْلال له.
و هذا كلام لا يصدر إلا من قلب دخله الإيمان ، و سكنه النور الإلهي.
ثم أرادت أن تغسل ماضيها من أدرانه.
إذ قالت :
{و ما أبرئ نفسي} فإن النفس تتحدث و تتمنى ، و لهذا راودته ، و قد اعترفت بذنبي و كيدي له.
{إن النفس} أي : النفس عامة.

١ـ الدرس رقم (٤٩)

{لأمارة بالسوء} تأمر صاحبها به ، فمنهم من يطيعها و يرضخ لرغباتها ، و منهم من يتأبى عليها و يقاوم انحرافها.
{إلا ما رحم ربي} أي : إلا نفسا رحمها الله و طهرها ، فهي لا تأمر صاحبها إلآ بخير، كنفس يوسف عليه السلام.
ثم أعلنت توبتها العلنية ، و استغفرت ربها و استرحمته ، و ختمت كلامها قائلة :
{إن ربي غفور رحيم}.

* * *

و إلى هنا ..
و نتساءل : ماذا فعل الملك ؟
بل : إلى هنا ..

و تنتهي.. مِحْنَة السجن ، ومعها محنة التهام ..!!
و تسير الحياة بيوسف - بعد ذلك، وكما سنرى - رخاء ، يكون الاختبار فيها بالنعمة لا بالشدة.
و هذا ما سوف يتضح بإذن الله تعالى فيما يلي :

الفصل الرابع

(وكذلك مكنا ليوسف في الأرض)

(من الآية ٥٤ إلى نهاية الآية ٦٨)

١ ـ المشهد الأول (قال اجعلني على خزائن الأرض)

٢ ـ المشهد الثاني (وجاء اخوة يوسف فدخلوا عليه)

٣ ـ المشهد الثالث (أرسل معنا أخانا)

٤ ـ المشهد الرابع (يا بني لا تدخلوا من باب واحد)

٥ ـ المشهد الخامس (قالوا يا أبانا إن ابنك سرق)

المشهد الأول

(قال اجعلني على خزائن الأرض)

(من الآية ٥٤ إلى نهاية الآية ٥٧)

(أ) مضمون المشهد .

ترينا آيات هـــذا المشهد أنه : إذا تم التكوين ؛ جاء التمكين ..!!
وفعلا : صـار يوسف على خزائن الأرض ، الـتي ســـوف تدار من خلالها الأزمـــة القادمة .
كما تعلمنا : أن ذاك التكوين ، وهذا التمكين ، رحمة من الله يختص بهـــا من يشـاء من عبـــاده المحسنين ، الذين آمنوا وكانوا يتقـــون في الدنيا ، ولأجر الآخرة خير لهم وأفضل .

(ب) آيات المشهد .

يقول تعالى :

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

(ج) التفسير . . والدروس التربوية .

{و قال الملك ائتوني به} أي : أحضروا إلي يوسف.
قالها الملك ..
بعد أن تبينت له .. براءة يوسف مما نسب إليه ، و اتهم به ، و سجن بسببه هذه المدة.
بعد أن تبينت له .. درجة علمه في تفسير الرؤى.
بعد أن تبينت له .. حكمته في طلب إعادة التحقيق في أمر النسوة.
بعد أن تبينت له .. كرامته و إباؤه ، في عدم تهافته على الخروج من السجن ، و في عدم تهافته على لقاء الملك.
بعد أن تبينت له .. وقفة الرجل الكريم .. المتهم زورا في سمعته ، المسجون ظلما لعفته ، و هو يطلب رفع الاتهام عن سمعته ، بدل أن يطلب رفع السجن عن بدنه ، و هو يطلب الكرامة لشخصه و لدينه الذي يمثله و يدعو إليه ، دون أن يطلب الحظوة عند الملك.
كل هذا الذي تبين للملك : جعله يحترم هذا الرجل و يحبه.
و لذا قال :

{ائتوني به استخلصه لنفسي} أي : ليكون مستشارا لي آنس لرأيه ، و صديقا لي آنس بصحبته .

و ليس هذا الإيتاء به لمجرد إطلاق سراحه ، أو لتطييب خاطره مما أصابه ظلما في مملكتنا ، و لا للاستماع منه لتفسير الرؤى ، فقط.

على كل حال ..!!

ينفذ الأمر .. و يخرج يوسف من السجن ، و يحضر إلى الملك ، و يراه الملك ، ويكلمه الملك.

{فلما كلمه} ، و تحقق له صدق ما توسمه فيه و عرفه عنه ..!!

{قال إنك اليوم لدينا مكين أمين}

و هذه بداية الابتلاء -بعد الشدة- بالرخاء ليوسف عليه السلام.

إنك يا يوسف عندنا -ابتداء من اليوم- ذو مكانة و قدر رفيع ، كما أنك في أمان وطمأنينة ، فلا خوف ، و لا ظلم.

و في هذا الكلام : إيحاء بما بعده ..!!

إذ من كان عند ملك البلاد ، في محل الثقة ، بعيد عن التهمة ، كما أنه في مكانة عالية ، و منزلة محترمة : فهو - بالضرورة- أهل لتحمل المسئوليات ، و حسن إدارة الخروج من الأزمات.

سبحان الله ..!!

آثر يوسف كرامته و سمعته ، عن اهتمامه ببدنه حينما استدعاه الملك للخروج من السجن ..!!

كما آثر دينه و دعوته ، عن اهتمامه بمصلحته الشخصية.

و لذلك .. رفع الله قدره.

و في هذا درس تربوي :[١]

للذين يمرغون كراماتهم من أجل مصالح شخصية ، وأغراض دنيوية ، قد تتحقق ،

و قد لا تتحقق.

فإن لم تتحقق : ضاعت و ضاعت كرامتهم ..!!

و إن تحققت : فبدون كرامتهم ..!!

و لو أنهم آمنوا بالقدر ..!!

١- الدرس رقم (٥٠)

و لو أنهم قرأوا سورة يوسف : لعرفوا أن الاحتفاظ بالكرامة ، مع الإيمان بالقدر .. يحقق أضعاف أضعاف ما يحقق لهم التمرغ و التزلف و الانحناء ، مع ضياع الكرامة.

❋❋❋

كما نرى يوسف عليه السلام ، لما سمع هذه المرشحات من الملك {إنك اليوم لدينا مكين أمين} : لم يخر ساجدا للملك ، كما يفعل أهل عصره ، و أهل كل جاهلية ، و لم يقل كلمة توحي بطغيان الفرحة ، وَمَقْدِمِ المذلة ..!!
و لكنه .. استشعر الأزمة القادمة على البلاد ، كما استشعر مسئوليته على إدارتها ، وقدرته في إخراج البلاد - بعون الله- منها.
كما أنه أيقن : أن الكفاية ، و الأمانة ، الممكنة لهذا الإخراج المرتقب من هذه الأزمة المنتظرة ، المتوفرة لديه . . إنعام من الله تعالى عليه .
و من جهة ثالثة : احتفاظه بكرامته و عزة نفسه ، و قوة شخصيته ، و ترفعه على الدنايا؛ جعل المناصب تسعى إليه ، وتخر - بفضل الله - بين يديه .

* * *

وهو درس تربوي ١ . . ينبغي أن يعيه كل من تسند إليه مسئولية ، أو يكلف بمهمة .
و من هنا ..
{قال اجعلني على خزائن الأرض} أي : اجعلني المسئول عن خزائن أرض مصر ، و قال(خزائن الأرض) و كأن خزائن مصر هي خزائن أرض الدنيا كلها.
و كذلك بالفعل : كانت..!!
ثم ذكر للملك - بعد هذا الطلب- الصفات التي منحه الله إياها ، و التي تؤهله لحمل هذه الأمانة ، و تجعله قادرا على النجاح فيها.
حيث قال :
{إني حفيظ عليم} أي : أمين على ما تستحفظني عليه ، عالم بوجوه التصرف فيه.

١- الدرس رقم (٥١)

و قوله هذا : تعليل لطلبه الذي طلبه.
و هاتان الصفتان : هما ما يحتاج إليه كل مسئول عن شيء ، الأمانة و العلم.

فالأمانة : تجعله يصون ما تحت يده ، و يحافظ عليه ؛ خوفا من أن يسأل عنه يوم القيامة ، فيعاقب على التفريط فيها.

و العلم : يجعله يتصرف فيما وُكِلَ إليه على أحسن الوجوه ، التي تساعد على النجاح به وفيه ، بل يجعله جيد التدبير و التفكير ، في حسن إدارة ما استؤمن عليه.

و بتوافر هاتين الصفتين : يؤدي المسئول عمله على النحو الذي يرضى الله عنه ، ويسعد العباد به ، و يصلح البلاد في عهده.

وهو درس تربوي ١ . . ينبغي أن ينتبه له كل من يطلب تحمل أعباء أية مسئولية .

و يلاحظ : أن يوسف عليه السلام ، تقدم بطلب تحمل هذه المسئولية ، و القيام بأداء واجباتها ، في هذه اللحظة المناسبة ، التي يعلم يقينا أن طلبه سيجاب فيها : من باب الإحساس بضخامة الأزمة المقبلة الطاحنة ، التي يعلم أن تبعاتها جسام ، و مخاطرها عظام ، و التي يعلم أن المسئولية فيها عن إطعام شعب كامل ، بل الشعوب المجاورة للبلاد معه ، و في مدة طويلة ، أربع عشرة سنة متوالية.

كما ينبغي أن يلاحظ : أن يوسف عليه السلام كان على إدراك كامل بأن هذه المسئولية .. كلها غرم ، لا غنم فيها.

و هي مسئولية : يهرب منها الرجال ، لأنها قد تكلفهم رؤوسهم ، لأن الجوع كافر -كما يقولون- و قد تمزق الجماهير الجائعة أجساد المسئولين في لحظات الجوع و الجنون٢.

و لأن يوسف عليه السلام يعلم يقينا أنه يمتلك.. أدوات النجاح ، و مؤهلات التفوق في هذه المهمة : فقد أقدم عليها.

و لأن يوسف عليه السلام يعلم يقينا أن أداء هذه المهمة ، و النجاح فيها ، و إنقاذ شعب من شعوب الله عبادة له سبحانه : فقد طلبها صراحة.

و نؤكد مرة أخرى : على أن هذه المسئولية في ذاتها من جهة ، و في هذه الظروف من جهة أخرى .. غرم لا غنم ، و مخاطرة كبيرة.

و لهذا .. فهو لم يطلب لنفسه وظيفة ، أو ولاية.

و مع ذلك ، فلو قال قائل : كيف يطلب يوسف عليه السلام لنفسه ذلك ؟

فالجواب

١- الدرس رقم(٥٢) ٢- انظر : الظلال ١٣/ ٢٠٠٤

أنه طلب ذلك ليتوصل به إلى تنفيذ أحكام الله ، و إقامة الحق ، و بسط العدل ، والتمكن مما لأجله بعث الأنبياء إلى العباد.

خاصة : مع علمه أن أحدا غيره لا يقوم مقامه في ذلك.

فطلبه ابتغاء وجه الله ، لا لحب الدنيا[١].
فإن قيل : كيف يكون التوفيق بين هذا الموقف و بين ما روي عن رسول الله ρ ..
في قوله : "يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة ..
فإنك إن أعطيتها عن مسألة : وكلت إليها.
و إن أعطيتها عن غير مسألة : أعنت عليها" ؟
و في قوله : "لا نستعمل على عملنا من أراد" ..؟
فالجواب من عدة وجوه[٢] :
أولا : أن يوسف عليه السلام طلب ذلك ؛ لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح ، و توصيل الفقراء إلى حقوقهم ، فصار كالفرض المُتَعَيَّن عليه.
ثانيا : أنه لم يقل (إني حسيب كريم)
و لم يقل (إني جميل مليح)
بل قال {إني حفيظ عليم}.
و من هنا .. يعُلم جيدا أنه سألها بمؤهلاتها : الحفظ ، والعلم.
ثالثا : أنه قال ذلك عند من لا يعرفه ، فأراد تعريف نفسه ، فصار ذلك مستثنى من قوله تعالى {فلا تزكوا أنفسكم}[٣] .
هذا ..
و هناك دروس تربوية في هذا الموقف النبوي ، منها :
١- جواز أن يطلب الإنسان لنفسه عملا يكون له أهلا ، ولشروطه مالكا ، وللنجاح فيه واثقا ، و بطاعة الله من خلاله قادرا [٤] .
٢- يجوز [٥] للإنسان أن يصف نفسه بما فيه من علم و فضل ، عند من لا يعرفه ، إذا اقتضت الضرورة ذلك ، لتحصيل فائدة شرعية ، أو دفع مضرة ، بشرط أن يكون ذلك بعيدا عن قصد ..تزكية النفس ، والمراءاة[٦] .

١- الأساس ٢٦٦٧/٥
٢- انظر: القرطبي ٢١٦،٢١٧/٩
٣- النجم ٣٢
٤- الدرس رقم (٥٣)
٥- انظر: القرطبي ٢١٧/٩
٦- الدرس رقم (٥٤)

٣ - يباح للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر ، أو السلطان الكافر .. بشرط أن يعلم أنه يفوض إليه فيما سيعمله ، دون معارضة أو تقييد.
وأما إذا كان عمله فيه ، بحسب اختيار الفاجر، وشهواته، وفجوره: فلا يجوز ذلك[١].

و للأستاذ سعيد حوى عليه رحمة الله كلام نفيس في هذا الموضوع ، ننقله بنصه من كتاب "الأساس في التفسير" .

و هو درس تربوي هام ٢ .

يقول : في طلب يوسف الولاية من سلطة كافرة ، بناء على كفايته ، و أمانته في القيام بمضمونها ، و قبوله ما يشبه الوزارة في دولة كافرة ، و هو محل القدوة : دليل على أن حكم الله في هذا الموضوع ، مرتبط بمصلحة الإسلام و المسلمين ، و مصلحة الخلق.

ثم يقول : و هو موضوع يحتاج إلى موازنات كثيرة ، و شورى من أهلها إن وجدوا.

و قد غلط ناس ظنوا أن المشاركة في وزارة ، أو غيرها ، في كل سلطة كافرة : حرام بإطلاق.

و في ثناء يوسف عليه السلام على نفسه : دليل على أنه يجوز للرجل ذلك .

و هناك قضيتان مهمتان في عصرنا :

ففي عصرنا : حيث يتحكم الكفر و يحكم ، و حيث فرضت أنظمة كافرة على أقطار إسلامية : تجد بعض المسلمين يترددون في المشاركة في الحكم ، أو في رفضه.

و تجدهم : يترددون في ترشيح أنفسهم لمناصب الدولة .

و الذي نفهمه من قصة يوسف عليه السلام:

أنه يستطيع المسلم أن يزكي نفسه في بعض الحالات ، و أن يستلم منصبا من مناصب الدولة ، إذا كان يريد ذلك خدمة لدين الله ، أو مصلحة المسلمين ، أو منفعة عامة لا يرافقها إثم.

و يتدخل في هذا الموضوع : عامل النية ، و موقف أهل الحق.

فإذا ارتأى أهل الحق لأحدهم أن يفعل شيئا : فعليه أن يفعل ، على شرط تصحيح النية.

هذا ..

و ليس كلامنا في عمل : يتنافى مع العقيدة ، أو يضطر صاحبة للنفاق ، أو لعمل آثم.

٢ـ الدرس رقم (٥٥)　　　١ـ انظر : القرطبي ٩/ ٢١٥

و الموازنة دائما : بين الجيد و الأجود ، و العزيمة و الرخصة ، و اختيار أخف الشَّرَّيْن ، و أهون الضررين : صعبة ، و تحتاج إلى توفيق إلهي.

ثم يقول :

إن الذين يُخَطِّئون المسلم الصالح الذي يقبل وزارة في بلد كالهند الحالية : يحكمون على الإسلام بالدمار هناك.

و الـــذين يقبلـــون النِّعـــال ، و يركبون متن النفاق للوصول إلـى وزارة ، لا يخدمون فيها إلا الكفر : ليسوا إلا طلاب دنيا.

ثم يقول :

و القاعـدة : إذا وجـد أهـل الشـورى مـن أهـل الحـق ، و رأوا رأيـا ، أو رأت أكثريتهم رأيا .. فهو الفيصل فـي كل زمـان و مكـان ؛ لأن قضـايا الحيـاة مـن التعقيد بحيث لا يسع المسلمين فيها موقف لين ، أو موقف صلب١ .

* * *

و تولى يوسف عليه السلام الوزارة.

{و كذلك مكنا ليوسف في الأرض} : و هكذا : مكنا ليوسف في أرض مصر.

أي : بعد أن اكتسب الخبرة مما نزل به من ابتلاءات ، و نجح فيها ، و عرف الجميع فضله و علمه و حكمته . . !!

و في جوٍّ توقعات الأزمـة الاقتصـادية التـي ارتعدت فرائص الجميـع لنبئهـا .. تولى يوسف الوزارة ، و خضع الجميع لرأيه ، و سلمت لـه مقاليد الأمور ، و فتحت له خزائن البلاد و أسرارها ، و اطلع على أحوالها و شئونها ، و صار :

{يتبوأ منها حيث يشاء} إذ له القدرة علـى التصـرف فـي جميـع شئونها ، و لذا ينزل في أي مكان منها ، و يتخذ أي بيت فيها سكنا ، أو يجوبها طولا و عرضـا حيث يشاء ؛ فله من كل ذلك ، أو كل ذلك ، كيف يشاء ، فالثقة في عدالته متوفرة ، و اليقين في إخلاصه موجود.

{نصيب برحمتنا من نشاء} أي : نخص برحمتنا ، و نعطي من رحمتنـا ، من نشاء من عبادنا.

أي : كما رحمنا عبدنا يوسف ، و أنعمنا عليه بذلك : فَفَضْلُنَا واسع علـى جميـع خلقنا ، ممن يحتمون بنا ، و يقصدوننا ، و يخلصون لنا ، كما فعل يوسف.

١ـ الأساس ٥/ ٢٦٧١ ، ٢٦٧٢

و القاعدة الربانية ، و السنة الإلهية : أننا ..

{لا نضيع أجر المحسنين} فكما لم نضـع أجـر يوسـف علـى صبره فـي محنتـه مع إخوته ، و في محنته في الجب ، و فـي محنتـه فـي الرق ، و فـي محنتـه مـع امرأة العزيز ، وكما لن نضيع أجره ـ إذا نجح فـي محنـة الرخـاء و الحكم ، الآتيـة ـ لا فـي الدنيا و لا في الآخرة.

فكذلك .. كل محسن ، في أيِّ أمر ، يقصد به وجه الله ، لا نضيع أجره في الدنيا ، ولا في الآخرة.
و هي دعوة إلهية مفتوحة لعمل الإحسان .. رجاء الأجر العظيم من الله تعالى ، رب العالمين ، في الدنيا و الآخرة.
و إذا كان جزاء الإحسان في الدنيا و في الآخرة : فلا ينبغي أن ينسينا أجرُ الدنيا أجرَ الآخرة ، كما لا ينبغي أن نجهل الموازنة و المفاضلة بينهما.
{و لأجر الآخرة خير للذين آمنوا و كانوا يتقون}
نعم .. أجرالآخرة ليوسف عليه السلام، ومن كان على طريقه من المؤمنين المتقين.. أعظم و أفضل و أكثر و أجل ، من كل فضل- رأوه ، أو يرونه - في الدنيا.
و بتسلم يوسف عليه السلام مقاليد الوزارة : ينتهي المشهد الأول من هذا الفصل الرابع. .
فإلى المشهد الثاني .

المشهد الثانى

(وجاء إخوة يوسف)

(من الآية ٥٨ إلى نهاية الآية ٦٢)

(أ) مضمون المشهد .

وتدور الأيام ..!!
وتتحقق رؤيا الملك ..!!
وتحدث الأزمة الاقتصادية في البلاد..!!
ويدير يوسف خزائن مصر خلال هذه الأزمة .
وتنتشر الأزمة ..!!
وتعم البلادَ المجاورة ، وتصل بلاد الشام ، ويتسامع الناس فيها بخبرخيرات مصر .
ويأتي إخوة يوسف إلى مصر؛ بسبب هذه المجاعة ، طلبا للطعام .
ويدخلون على يوسف .
فيعرفهم.. ولا يعرفونه .
ويطلب منهم إ حضار أخيهم الصغير في المرة القادمة .

(ب) آيات المشهد .

يقول تعالى

وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾

(ج) التفسير . . والدروس التربوية .

و ينعم الله على المتقين.
و يتولى يوسف الوزارة.
و يدير أمور البلاد ، و يحسن تصريف أحوالها و شئونها.
و تستمر الأيام ..!!

و تبدأ السنوات الطيبات ، و يكثر فيها المطر ، و يعم الخصب ، و تنبت الأرض من بقلها و قثائها و فومها و عدسها و بصلها و حنطتها ، بل تنتج من الخير أضعاف ما كانت تنتجه قبلا.

و ادخر يوسف في هذه السنوات السبع من الغلات ما ادخر ، احتياطا للناس ، و خوفا عليهم.

و تبدأ السنوات السبع العجاف : فلم تعد الأرض تنبت ما يلقى فيها من بذر ، و لا الشجر يخرج من ثمر.
و عم القحط بلاد مصر.

بل وصل إلى البلاد المجاورة ، و منها بلاد كنعان ، و هي التي فيها يعقوب عليه السلام.

و احتاط يوسف عليه السلام للناس في غلاتهم و أطعمتهم.

و بدأت تظهر ملامح الصفتين العظيمتين ، اللتين رشحتاه لهذه المهمة ، و هما : حسن الحفظ ، و حسن التدبير.

فكان يوسف عليه السلام : لا يشبع نفسه.

و كان لا يأكل هو ، و لا الملك ، و لا جنودهما ، إلا أكلة واحدة في وسط النهار ؛ حتى يكفي الناس ما بأيديهم مدة السبع السنين.

و كان ذلك رحمة من الله تعالى على أهل مصر.

و كما عمَّت المجاعة : شاع أمر يوسف ، و حسن تدبيره ، و عدله بين الرعية ، وخوفه عليهم ، و حرصه على إطعامهم.

و ورد عليه الناس من سائر الأقاليم ، يَمْتَارون لأنفسهم و عيالهم.

بل ورد عليه الناس من البلاد المجاورة.

و من هؤلاء أهل بلاد كنعان.

و ذلك : لما بلغ هؤلاء و هؤلاء أن عزيز مصر يعطي الطعام بثمنه ، دون مغالاة ، أو زيادة.

و كان لا يعطي الرجل أكثر من حمل بعير في السنة.

و خلال ذلك .. جاء في جملة من ورد للميرة - وهي شراء الطعام- إخوة يوسف ، أخذوا معهم بضاعة ، يعتاضون بها طعاما ، و ركبوا عشرة نفر ، و احتبس يعقوب عنده ، ابنه (بنيامين) شقيق يوسف عليه السلام ، و كان أحب أولاده إليه بعد يوسف[١].

يقول تعالى :

{و جاء إخوة يوسف} إلى مصر ، خلال هذه المجاعة التي أصابت بلاد مصر وبلادهم ؛ لشراء الطعام من عزيز مصر.

١- ابن كثير

{ فدخلوا عليه} أي : دخلوا على عزيز مصر ، و هو أخوهم يوسف عليه السلام ، و هو جالس في أبهته و رياسته و سيادته.

{فعرفهم} حين نظر إليهم دون أن يسألهم ، أو يسأل عنهم.

{و هم لـه منكـرون} أي : و هـم لا يعرفونه ؛ لأنـهم فـارقوه و هـو صـغير حدث ، لم يدروا أين ذُهِبَ به ؟ بل ما كانوا يستشعرون فـي أنفسـهم أن يصـير إلـى مـا صار إليه.

و لهذا .. لم يعرفوه ، أما هو فعرفهم١ .

ذكر السدي و غيره :

أن يوسف عليه السلام : شرع يخاطبهم.

فقال لهم كالمنكر عليهم : ما أقدمكم بلادي ..؟

فقالوا : يا أيها العزيز .. قدمنا للميرة.

قال : فلعلكم عيون ..؟

قالوا : معاذ الله ..!!

قال : فمن أين أنتم ..؟

قالوا : من بلاد كنعان ، و أبونا يعقوب نبي الله ..!

قال : و له أولاد غيركم ..؟

قالوا : نعم .. كنا اثني عشر ، فذهب أصغرنا هلك في البرية ، و كان أحبنا إلى أبيـــه ، و بقي شقيقه : فاحتبسه أبوه ؛ ليتسلى به عنه.

فأمر: بإيوائهم و إكرامهم.

{و لما جهزهم بجهازهم} أي : لما أوْفَى لهم كيلهم ، و حمل لهم أحمالهم :

{قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم} أي :ائتـوني بـأخيكم ، الـذي تزعمـون أنـه مـن أبيكم ؛ لأعلم صدقكم فيما ذكرتم لي من معلومات.

ثم قال لهم محاولا إقناعهم ، و مرغبا لهم في إتيانهم بأخيهم هذا :

{ألا تـرون أنـي أوفـي الكيـل و أنـا خيـر المنـزلين} أي : إن أتيـتم بـأخيكم ، و وجـدتكم صـادقين فيمـا ذكـرتم ، فسـأوفي لكـم الكيـل ، كمـا رأيتمـوني هـذه المـرة ، و سأنزلكم خير منزل كما حدث هذه المرة.

ثم قال مخوفا لهم من عدم إحضارهم لأخيهم كما طلب :

{فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي و لا تقربون}

أي : إن لم تأتوني به معكم في المرة القادمة : فليس لكم عندي طعام ، و لا بيع معكم و لا شراء.

١-انظر: ابن كثير.

و لذا {لا تقربون} بلادنا ، فلا جدوى من ذلك بدون أخيكم.

و نظرا لشدة رغبتهم في العودة لِلْمِيْرَةَ مرة أخرى ، خاصـة و أنـه أكرمهم ، و أوفى لهم الكيل : لم يرفضوا إحضاره..!!

بل ..

{قالوا سنراود عنه أباه و إنا لفاعلون}
أي : سنحرص أيها العزيز على مجيئه بكل ممكن ، و لا نبقي لنا مجهودا في إحضاره إليك ، لتعلم صدقنا فيما قلناه ، و تميرنا و أهلنا عندما نعود إليك.
و بعد هذا الترغيب و الترهيب الذي صنعه معهم رغبة في إحضارهم لأخيهم : صنع أمرا لا يخطر على بالهم ، يشجعهم به على تنفيذ ما وُعدوا به.
إذ ..
{قال لفتيانه} أي : موظفيه و عماله.
{اجعلوا بضاعتهم} التي قدموا إلينا بها من بلادهم ليستبدلوا بها طعامهم.
{في رحالهم} دون أن يشعروا بذلك.
و بذلك : يكونوا قد عادوا إلى بلادهم و أبيهم ، ببضاعتهم التي قدموا بها إلينا ، والطعام الذي أخذوه منا.
و كان ذلك منه معهم :
{لعلهم يرجعون} بها.
و المراد : يرجعون بها إلى بلادهم ، خوفا من أن لا يكون عندهم غيرها ، فلا يستطيعون العودة إليه مرة أخرى.
و يحتمل أن يكون المراد : لعلهم يرجعون إلينا إذا وجدوها في متاعهم ؛ تحرجا من أخذها و الطعام ، أو تورعا.
و هم في كل حال : سيعودون و معهم أخوهم الذي سألناهم عنه ، و طلبناه منهم.

❊❊❊

و أخذ إخوة يوسف الطعام و عادوا به إلى أبيهم ، و هم لا يشعرون أن بضاعتهم في رحالهم ، كل الذي يعرفون : أنهم سيراودون أباهم عن أخيهم الذي طلبه العزيز.
و بذلك ينتهي المشهد الثاني.

المشهد الثالث

(أرسل معنا أخانا)

(من الآية ٦٣ إلى نهاية الآية ٦٦)

(أ) مضمون المشهد .

في هذا المشهد : يحكي إخوة يوسف لأبيهم
ما حدث لهم في مصر
ويطلبون منه .. أن يرسل معهم أخاهم بناءً
على طلب عزيز مصر، منهم، ذلك .
وتعود الذاكرة بيعقوب عليه السلام إلى ولده
يوسف ، يوم أن طلبوه منه قبلا ، وما فعلوه بــه .
ومع ذلك ، ولحكمة يعلمها الله : يسلم الأمر
لله ، ويعطيهم أخاهم ..
بعد ما أخذ عليهم المواثيق بالمحافظة عليه .

(ب) آيات المشهد .

يقول تعالى

فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٦٦﴾

(ج) التفسير . . والدروس التربوية .

و عاد إخوة يوسف من عنده إلى بلادهم.

{فلما رجعوا إلى أبيهم} بالطعام ، و بدؤا في إخباره بما فعل عزيز مصر معهم.

{قالوا : يا أبانا منع منا الكيل} في المرة القادمة إن لم يكن معنا أخونا ، كما طلب عزيز مصر.

{فأرسل معنا أخانا} نرفع به المانع من الكيل ، ثم ..

{نكتل} من الطعام ما نحتاج إليه.

{و إنا له لحافظون} عن أن يناله مكروه.

و لأن هذه الجملة ، بما فيها من وعد منهم ، هي هي التي قالوها لأبيهم ، يوم أن أخذوا يوسف عليه السلام {أرسله معنا غدا يرتع و يلعب و إنا له لحافظون} ..!!

و لأنهم لم يوفوا بوعدهم الأول مع أبيهم ..!!

و لأن يوسف - بالنسبة لأبيه- قد ضاع و اختفى ، و لم يعد يعلم عنه شيئا ..!!

فقد رد عليهم قائلا :

{هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل} أي : إنكم قلتم في يوسف كما تقولون الآن ، ثم خنتم أمانتكم ، و لم توفوا بوعدكم ، فما الذي يجعلني آمنكم هذه المرة ؟

و كأنه يتساءل: هل أنتم صانعون به - لو أخذتموه- ما فعلتم بأخيه يوسف من قبل ..؟

أي : فاتركوا وعودكم ، و خلوني من حفظكم .

و لكن ..

وكأنه استشعر الخطر القادم : فقد طلب الحفظ و الرحمة من الله تعالى ، إذ قال :

{فالله خير حافظا و هو أرحم الراحمين} فهو الذي سيرحم كبر سني ، و ضعفي ، وَوَجْدِي على ولدي ، وأرجو من الله تعالى أن يرده علي ، و أن يجمع شملي به ، لأنه خير الحافظين ، و هو أرحم الراحمين.

و يبدو أن هذا الحوار مع أبيهم ، كان فور وصولهم ، و قبل أن يستريحوا من عَنَاء السفر ، و قبل أن يفتحوا أمتعتهم ، و يستخرجوا منها طعامهم.

و لما انتهى الحوار ..!!

و لما استراحوا ..!!

{و لما فتحوا متعاعهم} ليخرجوا ما فيها من غلال : وجدوا الغلال ، و وجدوا شيئا آخر.

ما هذا ..؟

إنها بضاعتهم التي أخذوها معهم ، ليشتروا بها الغلال.

نعم ..!!

{وجدوا بضاعتهم ردت إليهم}

يا الله ..!!

الغلال ، و البضاعة ، معاً ..!!؟

ما هذا الكرم ..؟

تَوْفِيَة في الكيل لنا ، وعَوْد لبضاعتنا معنا.

و هنا : أرادوا أن يطيبوا نفس أبيهم.

{قالوا يا أبانا ما نبغي} أي شيء نطلب وراء هذا ..؟

وفَّى لنا الكيل ، و ردّ لنا الثمن١ ..!!

{هذه بضاعتنا ردت إلينا} هذه المرة ،

و لو عدنا إلى مصر و معنا (بنيامين) فسوف نأتي بالطعام.

{و نمير أهلنا} أي : نجلب لهم كذلك طعاما.

{و نزداد كيل بعير} أي : بوجود أخينا معنا ؛ ستزداد حمولتنا كيل بعير.

و ذلك : أن يوسف عليه السلام كان يعطي كل فرد فقط حمل بعير.

{ذلك كيل يسير} أي ذلك سهل ميسر في مقابلة أن يأخذوا أخاهم معهم.

* * *

كل هذه المحاولات ، و الاغراءات ، و الضمانات : و يعقوب عليه السلام صامت لا ينطق ، ساكت لا يَعِدُ بشيء.

و أخيرا ..

استسلم على كره ، و وافق على مضض.

و لكنه جعل لموافقته على تسليم ابنه الباقي شرطا.

فما هذا الشرط ..؟

{قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتنني به إلا أن يحاط بكم} أي : لتقسمن بالله قسما يربطكم ، أن تردوا علي ولدي ، إلا إذا غُلِبْتُمْ على أمركم غَلَبًا لا حيلة لكم فيه ، و لا تجدي مدافعتكم عنه.

و لذلك : أخذ كل الوثائق عليهم ، و أغلق كل المسالك أمامهم ، في محاولة التفريط فيه أو إيذائه.

و هذا درس تربوي ٢.. في ضرورة الأخذ بالأسباب ، مع الإيمان بالله تعالى .

١ـ القرطبي ٢٢٤/٩ ٢ـ الدرس رقم (٥٦)

و هنا ..

سارعوا ، فأقسموا ، و آتوه موثقهم ..!!

{فلما آتوه موثقهم} لم يكتف به ، و لم يركن إليه فقط ، بل :

{قال الله على ما نقول وكيل} أي : أفوض أمري لله ، و هو وكيلي فيما تعاهدنا عليه ، و قلتموه و قلته ، و هو الرقيب عليكم ، و المطلع على نياتكم ، و ما تضمرونه.

و إلى هنا ينتهي هذا المشهد.

و يبدأ المشهد التالي.

المشهد الرابع

(يا بني لا تدخلوا من باب واحد)

(الآيتان ٦٧ ، ٦٨ فقط)

(أ) مضمون المشهد .

لم يكتف يعقوب ـ حينما وافق لأولاده
علىأخذ أخيهم ـ بالمواثيق ، يأخذهـــا عليهم .
بل : وصاهم ، بحنان الوالد ، وخبرة
المجرب ، مفوضا أمره ، وأمرهم لله تعالى .
وليس هذا فقط ..!!
بل ذكرهم بقـــــدر الله تعالى، وحكمه ،
وشـرعه ، ووجـوب التوكل عليه ، وحسن
التفويض إليه .
ودخلوا من حيث أمرهم أبوهم .
فماذا حدث بعد . . ؟

(ب) آيات المشهد .

يقــول تعالى

وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾

(ج) التفسير . والدروس التربوية..

و في هذا المشهد الرابع من الفصل الرابع :

نرى يعقوب عليه السلام - بعد أن وافق على أخذهم لأخيهم معهم- صار يوصيهم ، بحنان الوالد ، و عطفه ، و تجربته السابقة.

و في هذه الوصية نرى :

قمة التفويض لله.

و قمة الإيمان بقضاء الله و قدره.

و قمة التوكل عليه سبحانه.

مع الأخذ - كذلك- في الأسباب.

و لكن ..

الأخذ في الأسباب : تعبدا.

و الثقة الكاملة في مُسَبِّبِ الأسباب ، و اليقين بأنه الفاعل الحقيقي سبحانه.

و في هذه الوصية :

{قال يا بني لا تدخلوا} مصر

{من باب واحد} من أبواب مصر، بل

{ادخلوا من أبواب متفرقة} أي تفرقوا أنتم في الدخول إلى مصر ، فيدخل بعضكم من باب ، و البعض الآخر من باب آخر ، و هكذا.

و هذا درس تربوي ١ . . في الأخذ بالأسباب : نسلكه تعبدا ، لا دفعا لضر ، و لا جلبا لنفع ؛ حيث إن الضار و النافع هو الله تعالى .
كما أن أمرَه هو الذي سينفذ ، و قضاءَه هو الذي سيقع .
و لذلك قال يعقوب عليه السلام :
{ ما أغني عنكم من ال لله من شيء } أي : لا أملك لكم من الله نفعا و لا ضرا ، و احترازي هذا لا يرد قدر الله و لا قضاءه.
{إن الحكم إلا لله} أي : حكمه القَدَري القَهْري الذي لا مفر و لا فكاك منه ، له وحده فلا يملك الناس -و لا أنا- لأنفسهم منه شيئا.
أما حكمه الشرعي: فهذا هوالذي يملك الناس باختيارهم - تنفيذَه ، أوعدمَ ذلك.
وعلى أساس من التنفيذأوعدم ذلك: يكون الثواب أوالعقاب في الدنيا أوالآخرة.
و ما دمنا نؤمن بحكم الله القدري :
فلا بد من التفويض ، و لا بد من التسليم ، و لا بد من التوكل على الله تعالى.
{عليه توكلت} و فوضت أمري ، و أمر يوسف ، و أمر ابني هذا ، و أمركم جميعا ، إليه سبحانه.
{و عليه فليتوكل المتوكلون} فتوكلوا عليه ، و اعتمدوا في كل أموركم عليه سبحانه.
و هنا سؤال يطرح نفسه.
لم قال لهم أبوهم {لا تدخلوا من باب واحد} ؟
يقول الأستاذ سيد : لوكان السياق القرآني يحب أن يكشف عن السبب لقال ..!!
و لكنه قال فقط {إلا حاجة في نفس يعقب قضاها}
فينبغي : أن يقف المفسرون عند ما أراده السياق ، احتفاظا بالجو الذي أراده .
. والجو يوحي بأنه : كان يخشى شيئا عليهم ، و يرى في دخولهم من أبواب متفرقة ، اتقاءً لهذا الشيء ، مع تسليمه بأنه لا يغني عنهم من الله من شيء ، فالحكم كله إليه ، و الاعتماد كله عليه

١- الدرس رقم (٥٧)

و إنما هو خاطر شعر به ، و حاجة في نفسه قضاها بهذه الوصية.
و هو على علم بأن إرادة الله : نافذة ، فقد علمه الله هذا.. فتعلم١.

***

و مع ذلك :فهناك من حاول معرفة السبب الداعي لهذه الوصية ..
لذا ..
١- قال بعضهم : إنه كان يخاف عليهم من غِيرة الملك ، بسبب كثرتهم -أحد عشر رجلا- و فُتُوَّتِهِمْ ، لو دخلوا من باب واحد.
٢- و قال بعضهم : إنه كان يخشى عليهم من تتبع قطاع الطريق لهم ، لو دخلوا من باب واحد٢.
٣- و قال بعضهم : إنه أمرهم بالدخول على هذا النحو المتفرق ؛ حتى لا يفطن لهم أحد ، فَيُكَادُ لهم٣.
٤- و جمهور المفسرين على أنه قال ذلك : لأنه خاف عليهم العين ، لكثرتهم ، و جلال أمرهم ، خاصة و أنهم كانوا أهل جمال و كمال و بسطة٤.

و على هذا : ففي الآية من الدروس التربوية ما يلي :
ا- الدلالة على : أن المسلم يجب عليه أن يُحذِّر أخاه مما يخاف منه عليه ، و يرشده إلى ما فيه طريق السلامة و النجاة ٥ .
فإن الدين النصيحة ، و المسلم أخو المسلم ٦ .
ب- الدلالة على : التحرُّز من العين ٧، على رأي من يقولون إنه خاف عليهم العين٨.

١- الظلال ١٣/ ٢٠١٨
٢- نفس المرجع
٣- الأساس ٢٦٧/٥
٤- انظر القرطبي ٢٢٦/٩ ، ابن كثير : سورة يوسف .
٥-الدرس رقم (٥٨)
٦-القرطبى ٩/ ٢٢٩
٧- الدرس رقم (٥٩)
٨ - القرطبي ٢٢٩/٩

و بمناسبة العين و الحسد : نذكر هذه النقاط من باب زيادة الفائدة.
أولا : العين حق ، و هو قول علماء الأمة ، و مذهب أهل السنة١.
و في تَعَوُّذِهِ يقول ρ : "أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان و هامة ، و من كل عين لامة" ٢.

و المشاهَد من ذلك كثير.
فكم من رجل : أدخلته العين القبر ..!!
و كم من جمل ظهير : أدخلته القدر ..!!
و لكن ذلك كله : بمشيئة الله تعالى {و ما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله}٣.
قال الأصمعي : رأيت رجلا عَيُنا ، سمع بقرة تحلب ، فأعجبه ثخبها ، فقال : أيتهن هذه ؟ فقالوا : الفلانية ، لبقرة أخرى ، يورون عنها.
قال : فهلكتا جميعا .. المورى بها ، و المورى عنها.
قال الأصمعي : و سمعته يقول : إذا رأيت الشيء يعجبني .. وجدت حرارة تخرج من عيني٤.
ثانيا : العلاج
إما باغتسال العائن ، أو توضئه ، و صب هذا الماء على المعين.
و إما بالاسترقاء للمعين.
و يكون الاغتسال أو التوضؤ : إذا عرف العائن.
و يكون الاسترقاء : إذا لم يعرف على وجه التحديد.
و يشهد للأول٥ :
حديث سهل بن حنيف ، و عامر بن ربيعة الذي نظر إليه.
و حديث سعد بن أبي وقاص ، و المرأة التي نظرت إليه.
و يشهد للثاني ٦ :
حديث ابني جعفر ابن أبي طالب ، و قول حاضنتهما : إنه تسرع إليهما العين .
ثالثا : واجب على كل مسلم أعجبه شيء أن يُبَرّك.
و التبريك : أن يقول : "تبارك الله أحسن الخالقين ، اللهم بارك فيه".

١-القرطبى ٢/٩
٢-البخارى ..ك الأنبياء، باب(١٠
٣- البقره ١٠٢
٤-القرطبى٢٢٧/٩
٥-القرطبى٢٢٦/٩
٦- القرطبى٢٢٧/٩

فإنه إذا دعا بالبركة : صُرِفَ المَحْذور.
فإن العين لا تضر و لا تعدو : إذا برّك العائن.

❋❋❋

على كل حال ...
سار ركب إخوة يوسف من أرض كنعان ببلاد الشام إلى أرض مصر ..!!
و لما وصلوا إلى مصر : نفذوا وصية أبيهم ، و لم يدخلوا من باب واحد ، بل دخلوا من أبواب متفرقة ..!!
{و لما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم} أي : من أبواب شتى متفرقة.
{ما كان يغني عنهم} دخولهم هذا من الأبواب المتفرقة ،
{من الله من شيء} أي : ما كان يمنعهم من الدخول على هذا النحو ، من وقوع قدر الله ، و ما أراده لهم و بهم ، من شيء.
و بالفعل .. قد حدث ما ساءهم ..!!-
من وقوع أمور كثيرة لهم..!!
كما سنرى -إن شاء الله- في الفصل القادم.
{إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها} إلا أنها كانت رغبة في نفس يعقوب ، نفذها بهذه الوصية ، و هي خوفه عليهم.
{و إنه لذو علم لما علمناه} من قدر الله ، و وجوب الإيمان به ، و التسليم له ، والصبر عليه.
و إن ذلك كله : لحكمة ، فوض التسليم فيها ، و الإذعان بها ، لله تعالى.
و هو يعلم ذلك علما جيدا ، مما علمناه إياه.
{و لكن أكثر الناس لا يعلمون}
و لذلك : فأكثرهم لا يستسلمون راضين لقضاء الله و قدره ، و لا يفوضون أمورهم لله تعالى ، وَمِنْ ثَمَّ لا يُذْعِنُونَ له حق الإذعان.
وهذا درس تربوي ١ . . ينبغي أن نعيه جيدا ، وأن لا نغفله أبدا .

.١ـ الدرس رقم (٦٠)

وهو . . أن يمنعنا عدم الفهم لحكمة الله في قضائه وقدره ، بنا ومعنا ، من التسليم والتفويض إليه ، والرضا بقضائه وقدره ، على أي شكل يكون ، وعلى أية حال يأتينا فيها

* * *

علـى أيـة حـال . . كـان هـذا الإجمـال لمـا حـدث بعـد دخـولهم إلـى مصـر، مـن الأبواب المتفرقة ـ تنفيذا لوصية أبيهم ـ و معهم أخاهم.
أما تفصيل ما حدث.
فهذا موضوع الفصل التالي.

١٥٠

الفصل الخامس

(صواع الملك)

(من الآية ٦٩ إلى نهاية الآية ٨٢)

١ ـ المشهد الأول (إني أنا أخوك)

٢ ـ المشهد الثاني (أيتها العير إنكم لسارقون)

٣ ـ المشهد الثالث (استخرجها من وعاء أخيه)

٤ ـ المشهد الرابع (إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل)

٥ ـ المشهد الخامس (قالوا يا أبانا إن ابنك سرق)

المشهد الأول

(إني أنا أخوك)

(الآية ٦٩ فقط)

(أ)   مضمون المشهد .

وعمل أولاد يعقوب عليه السلام بوصية

أبيهم..!!

ودخلوا إلى مصر .

ولما دخلوا على العزيز ، وهو يوسف :

انفرد بأخيه ، وكشف له عن نفسه .

وواســـاه .. على ما كان يلقاه منهم ..!!

وبَيَّتَ في نفسه شيئا .

(ب) آيات المشهد .

يقول تعالى

وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾

(ج) التفسير . . والدروس التربوية .

و مضت الأيام !! وَ نَفَدَ الطعام الذي أحضره إخوة يوسف من مصر قبلا !! و أرادوا الذهاب مرة أخرى إلى مصر ، لجلب طعام جديد ، لهم ، و لأهليهم ..!! و في هذه المرة لم يكونوا عشرة فقط - كالمرة السابقة- بل كانوا أحد عشر.

نعم .. فقد كان معهم أخوهم " بنيامين " شقيق أخيهم يوسف ، و الذي طلب منـهم يوسف إحضاره معهم.

و ترك هؤلاء الإخوة أرض كنعان ..!!

و تحركـوا صـوب مصـر ، بلـد الغـلال والخيـرات ، علـى أهلهـا ، و علـى جيرانهم. ذهبوا إليها أملا في جلب الطعام منها لأهليهم.

و دخلوا مصر.

و دخلوا على يوسف عليه السلام ، الذي كان يشرف على توزيع الطعام و الغلال -خلال هذه الأزمة الاقتصادية- بنفسه !!

{و لما دخلوا على يوسف} أدخلهم دار كرامته - كما يقول الإمام ابن كثير- و منزل ضيافته.

و أفاض عليهم : الصلة ، و الإلطاف و الإحسان١.

قيل : و قد أمر أن ينزل كل اثنين منهم في منزل ، فبقي أخوه منفردا ، فضمه إليه٢ وكان هذا : لأنه يريد أن يختلي به بعيدا عنهم ، و إن كان في ظاهر الأمر : يكرمهم ، جزاء صدقهم الذي وجده منهم ، و وعدهم معه الذي وفوا به.

و هـذا معنـى قولـه تعـالى {آوى إليه أخاه} أي : ضمه إليه و اختلى به.
و لما اختلى به ، كلمه ، و كشف له عن نفسه.
{ قال } له : يا بنيامين.. { أنا أخوك } يوسف ، الذي فعل به إخوته كذا و كذا .. و أطلعه على شأنه ، و ما جرى له .
ثم قال له مواسيا و معزيا على ما مضى : {فلا تبتئس بما كانوا يعملون} أي : فلا تحزن على ما كانوا يعملون معي ، و معك ، ومع أبينا.
ثم أمره : بكتمان ما عرفه و أطلعه عليه دونهم.
يقول الإمام القرطبي٣ : لما عرف (بنيامين) أنه يوسف : قال له : لا تردني إليهم. فقال يوسف له : قد علمت اغتمام يعقوب بي ، فإذا لم تذهب معهم : ازداد غمه.

١ـ ابن كثير : سورة يوسف الآية ٦٩ ٣ـ المرجع السابق. ٣ ـ القرطبي ٩/ ٢٢٩

ولكن ..!!
رفض بنيامين الخروج إليهم ، و العودة معهم. فقال له يوسف : لا يمكن حبسك إلا بعد أن أنسبك إلى ما لا يجمل بك. فقال بنيامين : لا أبالي.

❋❋❋

و هنا تعاطف يوسف مع أخيه .. و اقتنع بإبقائه معه .. و لكن كيف يتم له ذلك ، دون أن يلفت أنظار إخوته إليه ..؟
و هذا ما سوف نعرفه -إن شاء الله- في المشهد التالي.

المشهد الثانى

(أيتها العير إنكم لسارقون)

(من الآية ٧٠ إلى نهاية الآية ٧٥)

(أ) مضمون المشهد .

في هذا المشهد : يحتال يوسف على اخوته
ـ للضرورة ـ بحيلة ، ليأخذ بها منهم أخاه " بنيامين " .
ويتهمهم بسرقة " صواع الملك " .
ويدافعـــون عن أنفسهم . . ! !
ولكنه يتفق معهم على القانـون والشريعة
التي يرتضون حكمها، لو ثبتت عليهم السرقة . . ! !
ويرتضون شريعة يعقـوب ، وهي : أن

يؤخـذ السـارق جزاء ما سرق .
وهذا هو نفس ما يهدف إليه يوسف غليه السلام....!

(ب) آيات المشهد .

يقول تعالى

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾

(ج) التفسير .. والدروس التربوية .

و هذا مشهد مثير : حافل بالحركة و الانفعال.

حيث إن يوسف عليه السلام بعد هذه الضيافة الكريمة ، و بعد أن اختلى بأخيه وبعد أن كان بينهما - في هذه الخلوة- ما كان ..!! يأمر بتجهيز رحالهم ، من حيث : الكيل لهم ، وتحميل جمالهم.

و يتم هذا التجهيز المطلوب ..!!

{فلما جهزهم بجهازهم} : دس خفية ، و من وراء ستار ، كأس الملك في رحل أخيه ؛ تنفيذا لتدبير خاص ، ألهمه الله له١ ، و لحكمة أرادها الله تعالى.١

- الظلال ١٣ / ٢٠١٩

يقول تعالى :

{جعل السقاية في رحل أخيه} دون علم بنيامين ذلك ، و قد يكون فعل ذلك بنفسه ؛ ولم يطلع عليه أحدا ، أو أمر بعض خواصه ، و موظفيه بذلك ١ .

والسقاية هي: كأس الملك ، وهي الصواع ، وهي عادة: من الذهب الخالص.

و وهى عبارة عن : إناء له رأسان ، و في وسطه مقبض... و كانت تستعمل في أمرين: في شرب الملك من جهة، وفي الكيل من الجهة الأخرى ؛ و ذلك اهتماما بالقمح لندرته ، وعزته في هذه المجاعة.

و بعد أن تأكد يوسف عليه السلام تماما من : تجهيز جهازهم ، و النجاح في دس الكأس في رحل أخيه ، دون أن يشعر أحد: كان ما يلي :

{ثم أذن مؤذن} أي : صار المنادي ينادي بصوت عال مرتفع ، و في الناس جميعا ، للإعلان العام ، و عند انصرافهم ، قائلا : {أيتها العير} أي : يا أصحاب هذه العير ، و هم إخوة يوسف. {إنكم لسارقون} و هذا اتهام عام بالسرقة ، دون تحديد للمسروق ، و دون تحديد لشخص السارق فيهم كذلك.

و يرتاع إخوة يوسف ، و ينزعجون من هذا الاتهام المخيف ، الذي أذيع على الملأ ، و تطير من ذهنهم فكرة الرحيل حتى يتم التأكد من خطأ هذه التهمة التى وجهت إليهم ، أو في التبرئة من هذه التهمة ، التي ألصقت بهم.

و لم يسكتوا على هذا الاتهام ، بل {قالوا و أقبلوا عليهم ماذا تفقدون} ؟

سؤال بدهي ، واستفسار فوري ،عن هذا الشيء المسروق ، صدر على وجه السرعة من إخوة يوسف ، الذين فاجأهم هذا الاتهام.

و هنا : أجابهم الذين يتولون تجهيز الرحال ، أو الحراس {قالوا نفقد صواع الملك} أي نحن نتهمكم بسرقة ما ضاع و فقد ، و أن هذا الذي فقد : هو كأس الملك.

ثم أتبعوا كلامهم هذا : بإعلانهم عن مكافأة سخية لمن يأتي به من نفسه ، دون تفتيش لمتاعه ، أو استخراج له من رحله .

إذ قالوا: {ولمن جاء به حمل بعير}من القمح العزيز، وهي مكافأة سخية ، في هذه الظروف ، التي عمت فيها المجاعة ، و غلت فيها الأسعار ، و عز فيها الطعام .

ولزيادة التأكيد في نوال هذه المكافأة، وإثبات الجدية في دفعها:قال رئيس هؤلاء الغلمان، أوالموظفين:{وأنا به زعيم} أي : و أنا لهذه المكافأة ضامن ، و عنها مسئول .إذا : فالكلام جد لا هزل فيه ، و اتهام صريح خطير ، لا بد من دفعه و نفيه.

١ـ القرطبي ٩/ ٢٢٩

ولأن إخوة يوسف لم يأتوا لسرقة أصلا ، و لم يسرقوا فعلا ..!!

و لأنهم تأثروا تأثرا شديدا بهذا الاتهام ، الذي يخلخل الثقة والعلاقات في المجتمعات ، و الذي يتنافى معهم ، وهم أولاد نبي من أنبياء الله ..!!

فقد أقسموا .. واثقين ببراءتهم{قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض و ما كنا سارقين} أي : و الله ما سرقنا ، و لا ينبغي أن يكون منا ذلك ، و ما عرف عنا ، و أنتم تعلمون حالنا جيدا ، و تعرفون صدقنا ، و متأكدون أننا ما جئنا هنا إلا من أجل الطعام ، و لم نأت لمثل هذا الفساد.

و يلاحظ : أنهم عبروا عن السرقة : بالفساد في الأرض ، و هو تعبير يعلمنا به المولى سبحانه : درسا تربويا هاما ١

هو : أن السرقة إفساد في الأرض ، بل إن كل مخالفة لحكم من أحكام الله : هي إفساد في الأرض.

و من هنا : فإن كل امتثال لأمر ، أو اجتناب لنهي ، ورد عن طريق الشرع : فهو إعمار للأرض ، و إصلاح لها ، و إسعاد لأهلها.

* * *

و لم يلتفت رجال يوسف لهذا القسم ، و هذا النفي للتهمة !!

بل واصلوا إكمال الدور : بالحديث عن العقاب لمن تثبت عليه هذه التهمة ، التي أذّن بها المؤذن ، و التي اتهم بها إخوة يوسف ، و هي سرقة كأس الملك ، حيث قالوا : {فما جزاؤه إن كنتم كاذبين} ؟

و هكذا دخول مباشر إلى تحقيق الغرض من هذا الاتهام ، حيث لم يقولوا : سنرى إن كنتم كاذبين أو صادقين ، كما هو المتبع في أول خطوات التحقيق ، بل دخلوا في الحديث عن العقاب مباشرة ، و بهذه الصورة {فما جزاؤه} ؟
ولأن إخوة يوسف واثقون من أنفسهم ، موقنون ببراءتهم : فقد ارتضوا تحكيم

١ـ الدرس رقم (٦١)

شريعتهم بخصوص هذا الموضوع ، فيمن يظهر أنه سرق. {قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه} أي : من وجد الشيء المسروق عنده ، و ثبتت عليه السرقة : فهو جزاؤه.
أي يؤخذ هذا السارق رهينة ، أو أسيرا ، أو رقيقا ، في مقابلمايسرق.
{كذلك نجزي الظالمين} أي : هو الجزاء المتبع في شريعة يعقوب عليه السلام١، و هذا هو الذي يفعل في الظالمين إذا سرقوا.
و يلاحظ مرة ثانية : أنهم عبروا عن السرقة هنا بالظلم .

وفي ذلك درس تربوي ٢: حيث إن السارق يظلم نفسه بالمخالفة أولا ، و يظلم غيره باستلاب حقه ثانيا.
و بهذا ، فالسرقة إفساد و ظلم؛ و بالتالي ، فكل مخالفة للشرع : إفساد في البلاد ، و ظلم للعباد.

* * *

و هنا .. بعض التساؤلات.
أولها : كيف رضي بنيامين بالقعود مع يوسف طوعا ، و رفض العودة مع إخوته ، وفي ذلك : عقوق بالوالد ، و زيادة في الحزن عليه ..؟
ثانيها : كيف رضي يوسف أيضا على قعود أخيه ، و فيه ما فيه على أبيه ..؟
ثالثها : كيف نسب يوسف السرقة إلى إخوته ، و هم برآء في قوله {إنكم لسارقون} ؟
و جواب ذلك ..

على الأول : أن الحزن كان قد غلب على يعقوب ، بحيث لم يعد يؤثر فيه ، فَقْدُ غيره من إخوته كل التأثير.
بدليل أنه لما فقد بنيامين و عرف بذلك : قال مباشرة {يا أسفى على يوسف} دون ذكر أو إشارة إلى بنيامين.

١ـ الظلال ٢٠١٩/١٣ ٢ـ الدرس رقم (٦٢)

كما أن بنيامين رضي بذلك لما عرف أن غيابه عن أبيه سيكون غيابا مؤقتا ، يعقبه فرح كبير لأبيه ، بعودة يوسف إليه.
و على الثاني : فلعل موافقة يوسف على ذلك كانت بوحي من الله تعالى ، كما يقول الإمام القرطبي ١.
خاصة : و أن يوسف أيضا عرف أنَ لَمَّ الشَّمْل بينه و بين إخوته و أبيه قد أزف ، و أن الفرح قد اقترب .. فوافق لتتحقق الحكمة ، و لتتم الفرحة.
و على الثالث : أن ذلك أطلق عليهم على سبيل التورية ؛ حيث إن القوم كانوا قد سرقوه من أبيه ، و ألقوه في الجب ، ثم باعوه ، فاستحقوا هذا الاسم بذلك الفعل.
و من هنا : صدق إطلاق ذلك عليهم٢.
و يمكن أن يقال : أن ذلك من باب الحيل الشرعية التي يتوصل بها إلى مصالح ومنافع دينية.
و مثل ذلك : قوله تعالى لأيوب عليه السلام { و خذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث}٣.
و كذلك : قول إبراهيم عليه السلام في حق زوجته .. هي أختي ؛ لتسلم من يد الكافر.
و هكذا : اتفق الجميع على الشريعة التي يحتكمون إليها في موضوع هذا الاتهام ، و هي شريعة يعقوب عليه السلام.
و تنص في حالتنا هذه : على أن السارق يؤخذ جزاء ما سرق.
والآن . . ما بقي إلا التفتيش و التحقق من صحة هذا الاتهام ، أو عدمه.
فهذه هي الرحال كما هي : لم تتحرك ، و لم تتغير أحمالها ..!!
و هؤلاء هم المتهمون : لم يغادروا البلاد ، ولا يزالون متمسكين بالبراءة ، و الاحتكام إلى شريعة يعقوب.
إذا .. فليبدأ التفتيش للأحمال ، بحثا عن كأس الملك المسروق.
و ذلك في المشهد التالي.

١ـ انظر : القرطبي ٢٣٠/٩
٢ـ القرطبي ٢٣١/٩
٣ـ سورة ص ٤٤

المشهد الثالث

(استخرجها من وعاء أخيه)

(الآية ٧٦ فقط)

(أ) مضمون المشهد .

في هذا المشهد :
يبدأ التفتيش عن " صواع الملك "
الذي ضاع ،
والذي اتهم بسرقته.. إخوة يوسف .
وتكون المفاجأة . . !!
حيث وجد المسروق في رحل أخيهم
بنيامين.
وهكذا . . ووفق قانون يعقوب عليه
السلام،الذي ارتضوه واختاروه :
يؤخذ السارق جزاء ما سرق ..!!
ويتم ليوسف عليه السلام ما أراد .

(ب) آيات المشهد .

يقول تعالى

فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

(ج) التفسير . . والدروس التربوية .

و هكذا يبدأ التفتيش ..!! و قد ارتضى الجميع أن يطبق على نتيجة هذا التفتيش شريعة يعقوب ، و ليس شريعة الملك و نظامه.

شريعة يعقوب : أن يؤخذ السارق جزاء ما سرق..

أما شريعة الملك ونظامه في ذاك الحين : أن يدفع السارق ضِعْفَيْ ماسرق١.

و أيضا .. فالتهمة الموجهة إليهم تقتضي أن الكأس المسروقة لا بد أن تكون في رَحْلٍ مِنْ هذه الرحال الأحد عشر.

إذا .. فبأي رحل منها يبدأ التفتيش ..؟

و هنا تظهر فطنة يوسف عليه السلام في نفي الشك من قلوبهم ، لو بدأ بتفتيش رحل أخيه قبل رحالهم.

حيث يقول تعالى :

{فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه} أي: بدأ بتفتيش أوعيتهم قبل تفتيشه لوعاء أخيه.

و الوعاء : هو ما يحفظ فيه المتاع و يصونه.

و طبعا كانوا بعد تفتيش كل وعاء : يزدادون ثقة في أنفسهم ، و تيقنا من براءتهم..!!

١ـ انظر : القرطبي ٩/ ٢٣٥

و تم تفتيش أوعيتهم ، و لم يجد يوسف عليه السلام الصواع المسروق.

و لم يبق بدون تفتيش إلا وعاء أخيهم (بنيامين).

يروى أن المفتش لما انتهى من تفتيش رحالهم و وصل إلى الرحل الأخير، و هو لأخيهم بنيامين ، قال : ما أظن أن هذا الفتى رضي بهذا ، و لا أخذ شيئا ..!!

فقال له أخوته : و الله لا نبرح حتى تفتشه ، فهو أطيب لنفسك و نفوسنا.

و هنا .. فتش في رحل بنيامين ، و فتش ..!!

(ثم) كانت المفاجأة . . !!

لقد (استخرجها من وعاء أخيه}

و ذهل الجميع لهذه المفاجأة الخطيرة ..!!

و نظر بعضهم إلى بعض، نظرة استغراب ..!!

ثم نظروا إلى بنيامين، نظرة استنكار ..!!

ثم نكسوا على رؤوسهم ، و ظنوا الظنون كلها ..!!

و أقبلوا على أخيهم قائلين : ويلك يا بنيامين - ما رأينا كاليوم قط - ولدت أمك "راحيل" أخوين لِصَّيْن ..!! ؟؟

قال لهم أخوهم : و الله ما سرقته ، و لا علم لي بمن وضعه في متاعي ١ .

و هكذا تمت الحيلة ، و أصبح من حق (يوسف) أن يأخذ أخاه منهم ، بموجب شريعة يعقوب ، التي ارتضوا التحكيم على أساسها.

حقا ..!! {كذلك كدنا ليوسف} أي : دبرنا له و وجهناه إلى هذه الحيلة ،حتى يأخذ أخاه منهم، و يبعده عنهم.

و قد أخذه فعلا بموجب هذه الحيلة ، و تلك المكيدة.

و لو أن التحكيم و عقوبة السرقة كان بموجب قانون الملك و شريعته و نظامه : ما تم له أخذ أخيه.

و هذا من الكيد المحبوب ، لما فيه من الحكمة و المصلحة المطلوبة٢.

نعم .. {ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك} أي لم يكن يمكن له أخذه منهم ، لو أنه تم تطبيق العقوبة المنصوص عليها في شريعة الملك و نظامه.

و لكن شاء الله أن يجري على ألسنتهم حكم بني إسرائيل ، و هو أن يؤخذ السارق .. جزاء ما سرق .

{إلا أن يشاء الله} و قد شاء ، و تم الحكم عليه بشريعة يعقوب ، و هي أخذه جزاء ما سرق.

١ـ انظر : القرطبي ٢٣٥/٩ ٢ ـ ابن كثير الآية ٧٦

و قد تمت هذه الحيلة بما فتح الله به على يوسف من علم ، يرفع الله به صاحبه درجات و درجات متى شاء الله له ذلك و أراد.

{نرفع درجات من نشاء} أي : هذه سنتنا أن نرفع بالعلم و الإيمان من نشاء من عبادنا ، درجات فوق درجات.

و ممن رفعناهم بالعلم و الإيمان درجات عالية : يوسف عليه السلام.

فبالعلم و الإيمان : وصل إلى ما وصل إليه من مكانة عالية ، و منزلة في الناس سامية .

و بالعلم و الإيمان : توصل إلى هذه الحيلة الذكية في أخذ أخيه ؛ ليتم مراد الله تعالى

و قضاؤه في هذه الأسرة .

و بالعلم و الإيمان : صارت تصرفاته أسوة تحتذى ، و قدوة تقتفى ، في الناس جميعا ، و إلى يوم الدين.

و مع هذا ينبغي أن يعلم جيدا: أنه {فوق كل ذي علم عليم}وهو الله تعالى .

عن ابن عباس قال : يكون ذا أعلم من ذا ، و ذا أعلم من ذا ، و الله فوق كل عالم.

و عن سعيد بن جبير قال : كنا عند ابن عباس رحمه الله ، فتحدث بحديث ، فتعجب منه رجل ، فقال : سبحان الله ..!! و فوق كل ذي علم عليم.

فقال ابن عباس : بئس ما قلت ..!! الله العليم ، و هو فوق كل عالم.

و من هنا نفهم هذه الدروس التربوية :

١ـ أنه لا ينبغي أن يغتر أحد بما فتح الله عليه به من علم ؛ حيث إن ذلك كله من فضل الله تعالى١.

٢ـ أن الله هو العليم ، و لا عليم سواه.

و لذا لا يصح أن تقال هذه العبارة في التفضيل بين العلماء ، و بعضهم البعض ؛ حيث إن الله تعالى ، كما يقول ابن عباس ، و كما هو الحق "هو العليم ، و هو فوق كل عالم"٢.

٣ـ أن الذى يرفع ويخفض: هو الله سبحانه وتعالى، وما العلم إلا سبب فقط ٣.

--------------------------------- ------------------------------------

١- الدرس رقم (٦٣)　　　٢- الدرس رقم (٦٤)　　　٣- الدرس رقم (٦٥)

٤- جواز التوصل إلى الأغراض بالحيل ١ ، إذا لم تخالف الشريعة ، و لا تهدم أصلا من أصولها٢.
٥- أن الشيء الذي اتهم بسرقته (بنيامين) يسمى صواع ؛ باعتبار أنه يكال به. كمايسمى : كأس و سقاية ، باعتبار أنه يشرب فيه.
٦- أن كلمة {دين الملك} تطلق على شريعة الملك و نظامه ٣ ، و من هنا فكلمة الدين تطلق على الشريعة و النظام ، و ليس على الجانب التعبدي فقط ٤.

❋❋❋

و إلى هنا ... و أخذ يوسف أخاه ، بعد ثبوت التهمة ، و تطبيق الشريعة التي احتكم إليها و ارتضاها إخوته ..!!

❋❋❋

و هنا .. و قع إخوة يوسف في حيص بيص ، كما يقولون ..!!
ماذا يفعلون ..؟
بل ماذا يقولون ..؟
و بماذا -عن أخيهم- يدافعون ..؟
بل كيف يردون التهمة ، التي أثبتها التحقيق عليهم ؟

❋❋❋

و هذا وذاك.. ما يوضحه المشهد التالي :إن شاء الله تعالى .

١ـ القرطبي ٢٣٦/٩
٢ـ الدرس رقم (٦٦)
٣ـ انظر: الظلال٢٠٢٠/١٣وما بعدها
٤ـ الدرس رقم (٦

المشهد الرابع

(إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل)

(الآيات من ٧٧ إلى نهاية الآية ٧٩)

(أ) مضمون المشهد .

بعد أن اقتنع إخوة يوسف بأن السرقة
ثبتت على أخيهم " بنيامين ".
وأُخِذَ في دين الملك ؛ جزاء ما سرق ..!!
تبرأ إخوته من فعلته هذه ، ونسبوها إلى
أخيه يوسف.
الذي آلمه ذلك ..!!
ولكنه لم ينفعل ، بل كظم غيظه منهم ،
وفوض الأمر لله .
ثم حاولوا .. استعطاف العزيز في أخذ
أخيهم منه ؛ لأجل أبيه الشيخ الكبير .
ولكن العزيز رفض ذلـــك . . بناءً على
احترامه للقانون ، الذي اختاروه والتزموا به .
وكذلك لتحقيق غايته ..!!

(ب) آيات المشهد .

يقول تعالى

﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ۝٧٧ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٧٨ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ۝٧٩﴾

(ج) التفسير . . والدروس التربوية .

إن موقفإخوة يوسف : كان في غاية الحرج.

و العجيب : أنهم بدلا من الدفاع عن أي واحد فيهم ، إذا بهم يتنصلون من هذه النقيصة ، و يؤكدونها على بنيامين.

و لكن .. لأن الموضوع ليس موضوع دفاع ، بل هو موضوع أحقاد : فقد ألقوا بها على يوسف أيضا ، و هم الذين يعلمون أمر يوسف جيدا ، بل هم الذين فعلوا مع يوسف من النقائص ما فعلوا.

إنها إذن الأحقاد على هذا الفرع من أبناء يعقوب عليه السلام ، الذي يحبه أبوهم -عنهم- حبا شديدا .

و لهذا .. {قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل}.

يـا سـبحان الله : يثبتـون الجريمـة   على أخيهم ، و كأن أخذه منهم، و إبعادَه عن أبيهم : جاء على هواهم. .!!

و لكنهم يثبتون الجريمة -و كأنها طبع فيه- بدليل مكذوب ، مفضوح كذبه.
فأخوه الذي يستدلون به في إثبات الجريمة ، هو نفسه الذي يستمع لكلامهم ، و هم لا يعرفونه ، و هو يعرف جيدا كذبهم فيما يقولون.
و بما أنه كلام مكذوب : فهو قذف في حق يوسف و أخيه.
و لأنه لا يريد أن يدافع عن نفسه و أخيه ، لحكمة يريدها الله تعالى ..!!
و لأنه لا يريد أن يعرفهم بنفسه ، و لا يريد أن يعرفوا شخصيته الحقيقية الآن ، لحكمة يريدها الله ..!!
(فـ) قد {أسرها يوسف في نفسه} أي أسر مقالتهم هذه و الرد عليها في نفسه.
{و لم يبدها لهم} أي : لم يظهر لهم الرد عليها ، و لم يظهر لهم -كذلك- التأثر بها ، و هو يعلم يقينا براءته، و براءة أخيه مما قالوه ، لحكمة يريدها الله تعالى ..!!
إنما قال لهم : {أنتم شر مكانا} أي : أنكم بهذا القذف شر مكانا عند الله من المقذوف.
و يبدو -كما يرى كثير من المفسرين- أنه قال ذلك في نفسه أيضا ، دون أن يجهر لهم به.
و لكنه -في ذات الوقت- أراد أن يقطع الجدل في هذا الموضوع الذي لا دخل له بالقضية الأصلية ، محل النزاع ، فقال : {و الله أعلم بما تصفون} و بحقيقة ما تقولون. أي : لا دخل لي بما تقولون ، و ليست عندي أدلة لتحقيقه ، و لذلك : أفوض أمر العلم فيه إلى الله تعالى ، فهو الأعلم ، بالذي تصفون إن كان صدقا أو كذبا.

و هذا درس تربوي ١ بليغ .. يفيد أنه ليس كل ما يعرف يقال ، حيث إن يوسف عليه السلام يعرف ما يقولون ، و يعرف كذبهم في الذي يقولونه ، و لم يدافع عن نفسه ، و لم يدافع عن أخيه ، و لم يفضح كذبهم ، بل فوض الأمر لله تعالى قائلا {و الله أعلم بما تصفون}.
و ذلك لحكمة أرادها الله تعالى.

***

و مع أنهم برهنوا للعزيز على أن الجريمة طبع في أخيهم بنيامين ، ورثها عن أخيهم

يوسف : إلا أنهم عادوا إلى الموقف الحرج الذي وقعوا فيه .. عادوا إلى الموثق الذي أخذه عليهم أبوهم في قوله لهم {لتأتنني به إلا أن يحاط بكم} ، فراحوا يسترحمون يوسف عليه السلام باسم والد الفتى ، الشيخ الكبير ، و يعرضون عليه أن يأخذ بدله واحدا منهم ، مراعاة لخاطر أبيه ، و يستعينون في رجائهم له بتذكيره بإحسانه و صلاحه، وَبِرِّه ؛ لعله يلين١.

{قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين}

و لكن يوسف عليه السلام تمسك بتنفيذ القانون الذي احتكموا إليه ، و الشريعة التي ارتضوها؛ إذ كان يريد أن يلقي عليهم درسا ..!! كما كان يريد إكمال خطوات المفاجأة ، التي يتكتم عليها ، و التي يُعِدُّها لهم و لوالده ، و للجميع ..!! ليكون وقعها في النفوس أعمق ، و أثرها التربوي في السلوك و العبرة أقوى و أبقى.

و لذلك : {قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده} أي : أعوذ بالله أن أكون ظالما ، بتنفيذ ما تريدون مني ، و هو أخذ من لم نجد متاعنا عنده.

و يلاحظ أنه لم يقل : معاذ الله أن نأخذ بريئا ، بجريرة سارق ؛ لأنه كان يعلم أن أخاه ليس بسارق.

كما أنه ذكر الحقيقة الواقعة بقوله {معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده} دون زيادة في اللفظ ، تحقق الاتهام أو تنفيه٢.

ثم قال : {إنا إذا لظالمون} أي لو فعلنا ما تريدون بأخذ آخر مكان ، لكان ظلما في شريعتكم ، فَلِمَ تطلبون ما عرفتم أنه ظلم ؟ و نحن بدورنا ما نريد أن نكون من الظالمين ، ولذا فطلبكم مرفوض.

و كانت هذه هي الكلمة الأخيرة في هذا الموقف ، و هذا المشهد .. و عرفوا بعدها أن لا جدوى من الرجاء ؛ فانسحبوا يفكرون في كيفية التصرف أمام أبيهم في هذا الموقف الحرج حينما يرجعون.

و هذا ما يصوره المشهد التالي :

١ـ الظلال ١٣/ ٢٠٢٢

٢ـ نفس المرجع .

المشهد الخامس

(قالوا يا أبانا إن ابنك سرق)

(من الآية ٨٠ إلى نهاية الآية ٨٢)

(أ) مضمون المشهد .

لما رفض العزيز ..!!
ولمايئسوا من أخذ أخيهم منه ..!!
امتنع أخوهم الكبير من العودة معهم
؛ حياءً من أبيه .
وقال لهم : ارجعوا أنتم ، وأخبروا
أباكم بما قد حدث .
واستدلوا لــه على صدقـكم :
بأن يسأل أهل القرية التي حدث فيها ذلك .
وأن يسأل كذلك أهل العير الذين صاحبونا
في رحلتناإلى مصر .

(ب) آيات المشهد .

يقول تعالى :

فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾

(ج) التفسير . . والدروس التربوية .

في هذا المشهد : نرى إخوة يوسف العشرة ، عقدوا مجلسا خاصا بهم ، يتشاورون فيه حول نتائج هذا الموضوع ، وذلك بعد أن عجزوا عن إقناع عزيز مصر، وهو يوسف عليه السلام بأخذ أخيهم منه ، و يئسوا من نتائج محاولاتهم في ذلك.

يقول تعالى : {فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا} أي : انفردوا بأنفسهم ، بعيدا عن الغير ، و تناجوا سرا فيما بينهم حول ما يفعلون.

و يبدو أنهم تكلموا و تناقشوا ، و تحاوروا ، دون فائدة ، أو دون أن يكون لأقوالهم أهمية ؛ حيث أغفل القرآن هذه الأحاديث.

و لكن شخصا واحدا منهم لم يغفل القرآن حديثه ، بل لم يذكر القرآن غير حديثه.

يقول تعالى { قال كبيرهم } أي : كبيرهم في السن ، أو كبيرهم في العقل و الرأي.

ماذا قال . . ! ! ؟؟

َوبَّخَ إِخْوَتَه.
ثم حَدَّدَ موقفه.
ثم عرَّفهم كيف يتصرفون مع أبيهم.
فقد قال لهم مُوَبِّخا : {ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله} لتردنّ بنيامين إليه ، في قوله {لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتنني به إلا أن يحاط بكم} ..؟ وقد آتيتموه ذلك الموثق...؟!!
و قد تعذر عليكم الوفاء بما وعدتم ..!!
{و من قبل ما فرطتم في يوسف} أي : إضافة إلى تفريطكم السابق في أخيكم يوسف ، الذي قال لكم أبوكم عنه {إني ليحزنني أن تذهبوا به}.
و قد ذهبتهم به ، و فرطتم فيه ..!!
و من أجل موقفكم هذا ، و ذاك ..!!
و من أجل خجلي من أبي ، و خوفي على أخي ..!!
{فلن أبرح الأرض} أي : فلن أعود معكم ، بل لن أغادر أرض مصر.
{حتى يأذن لي أبي} أي : حتى تعودوا إلى أبينا ، و تقصون عليه ما حدث ، و يعذرنا ، و يرضى عني ، و يأذن لي في الخروج من مصر ، و العودة إليه.
{أو يحكم الله لي} أي : لا أخرج من مصر حتى يحكم الله لي.. باستخراج أخي ، وإنقاذه مما هو فيه.
أو : لا أخرج حتى يحكم الله لي.. و تظهر براءة أخي .
أو : حتى يحكم الله لي.. بالموت .
أو : يحكم الله لي عن طريق الوحي إلى أبينا يعقوب.. ببراءتنا.
{و هو خير الحاكمين} لأنه : لا يحكم إلا بالعدل ، و أنا راض بحكمه تعالى كل الرضا.
هذا عن موقفي بالنسبة لهذا الموضوع.
أما عن موقفكم : فأقول لكم .. {ارجعوا إلى أبيكم} و أهليكم بالطعام ، و إذا ما وصلتم ، و سألكم أبوكم عن أخيكم بنيامين، وعني : {فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق} صواع الملك ، وَفَتَّشُوا رحله .. فوجدوه عنده ، فأخذوه جزاء ما سرق ، وفقا لشريعتك و دينك.
{و ما شهدنا إلا بما علمنا} أي : و ما شهدنا عليه بالسرقة إلا بما علمناه من سرقته وتيقنا و رأينا ، إذ قد اسْتُخْرِجَ الصواع من وعائه.

{و ما كنا للغيب حافظين} أي : و ما كنا نعلم الغيب حين أعطيناك المواثيق ، و في الغيب أنه سيسرق ، و ما كنا في الغيب عالمين أنه سرق له شيئا عندما سألنا عن جزاء السارق ؛ فقلنا له ما قلنا ، مما كان حجة له في أخذ أخينا منا.

و كذلك : إن كان بريئا .. و هناك أمر وراء هذا الظاهر الذي لا نعرفه : فنحن غير موكلين بالغيب و معرفته ، و لا حافظين له.

ثم قال لهم : و إن كان في شك من قولكم ، فقولوا له ؛ لترفعوا تهمة التفريط في أخيكم عن أنفسكم : {و اسأل القرية التي كنا فيها} و هي عاصمة مصر ، أي : و اسأل أهلها.

أو: و اسأل القرية نفسها ، نعني الجماد فيها : فأنت نبي ، و الله ينطق لك الجماد.

فإن سألت : فستجد الدليل على صدقنا فيما نقول لك.

و اسأل كذلك : {العير التي أقبلنا فيها} أي : و اسأل أهل القافلة التي رافقتنا ورافقناها في مصر ، و التي أقبلنا فيها و عادت معنا من مصر ، و شاهدت ما حدث مما قلناه لك عن أخينا.

فإن سألت : فستجد الدليل على صدقنا فيما نقول لك.

{و إنا لصادقون} فيما نقول لك ، إن سألت هؤلاء ، أو هؤلاء ، أو لم تسأل أحدا.

و بهذا ..

و بخهم أخوهم ، و بين لهم تفريطهم في أخويهم (يوسف) و (بنيامين) بالرغم من العهود و المواثيق التي قطعوها لأبيهم على أنفسهم ..!!

و حدد لهم موقفه .. و أنه لن يبرح أرض مصر ، و لن يعود إلى بلاد كنعان ، إلا إذا ، و إذا ..!!

و أمرهم بالرجوع إلى أبيهم ، و قول الصدق له كما وقع ، و الاستشهاد بأهل القرية التي كانوا فيها ، و أهل العير التي ساروا معها ، على صدقهم فيما ذكروا.

❋❋❋

و استمعوا لما قال ..!! و اقتنعوا بما قال ..!!
و خرجت قافلتُهم من مصر ..!! و عادت إلى بلاد كنعان ..!!
و وصلوا إلى أبيهم ..!!
و بالضرورة أخبروا أباهم ..!!

فماذا كان ..؟
و ماذا فعل يعقوب عليه السلام ؟

❊❊❊

هذا ما تجيب عنه الآيات الكريمة في الفصل التالي ، بإذن الله تعالى.

الفصل السادس

(هذا تأويل رؤياي من قبل)

(من الآية ٨٣ إلى نهاية الآية ١٠١)

(١) المشهد الأول (لا تيأسوا من روح الله)

(٢) المشهد الثاني (لا تثريب عليكم)

(٣) المشهد الثالث (إني لأجد ريح يوسف)

(٤) المشهد الرابع (يا أبانا استغفر لنا)

(٥) المشهد الخامس (ورفع أبويه على العرش)

(٦) المشهد السادس (توفني مسلما وألحقني بالصالحين)

المشهد الأول

(لا تيأسوا من روح الله)

(من الآية ٨٣ إلى نهاية الآية ٨٧)

(أ) مضمون المشهد .

لما عاد أولاد يعقوب إلى أبيهم ، بعد
أخـــــذ أخيهم منهم في مصر
وأخبروا أباهم بذلك :
قال غـــــير مصدق لهم : (بل سولت
لكم أنفسكم أمـرا فصـبر جمـيل عسى الله
أن يأتـيني بــهم جميعا)
وعابوا عليه ذلك . !!
ولكنـه . . أمرهم بالعـودة للبـحـث عـن
يوسـف ، وأخيه.
موصيا لهم: بالجد في ذلك ، وعدم اليأس
من تحقـــيق هذا الرجاء.. بفضل الله تعالى .

(ب) آيات المشهد .

يقول تعالى

قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾

(ج) التفسير . . والدروس التربوية .

في هذا المشهد : نرى إخوة يوسف ، و عددهم تسعة -هذه المرة- بعد أن خرجوا من مصر - بدون أخيهم الكبير ، و وصلوا إلى بلاد كنعان ، و وقفوا أمام أبيهم.

و قد أفضوا إليه بالنبأ المفجع ، و هو حبس أخيهم بنيامين ، و ما تبعه من عدم حضور أخيهم الكبير معهم كذلك.

فلا نسمع إلا ردا قصيرا تملؤه الخبرة ، و يعلوه الأمل.

الخبرة : في معرفة يعقوب بأولاده ، و مدى حقدهم كما سبق و حدث مع يوسف عليه السلام.

و الأمل : في الله تعالى .. في أن يرد عليه أولاده الثلاثة.

حيث {قال بل سولت لكم أنفسكم أمـرا} ، و" بـل" كمـا يقـول العلمـاء: للإضـراب ، أي كأنـه أضـرب عـن تصـديق كـل كلامهـم ، و نطـق بمـا يعرفـه عـنهم {سولت لكم أنفسك أمرا} أي زينت لكم أنفسكم أن ابنـي سـرق ، و مـا سـرق ، و إنمـا هـذا الـذي تقولـون -إن كـان قـد حـدث- أو مـافعلتم بـأخيكم ، مـن خيـالكم فقـط ، أو مـن عندكم أنتم ؛ و ذلك لأمر يريده الله تعالى.

أما حالي و شأني ، و ما يناسبني ..!!

{فصبر جميل} و هذا هو الأولى بي.

و يلاحظ : أنها نفس الكلمة التي قالها حينما فُقِدَ منه يوسف عليه السلام.

و لكنهـا هـذه المـرة : مُفْعَمَـةٌ بالأمـل ، مليئـة بالرجـاء ، مُسْتَنِدَة علـى وعـد الله تعالى في رؤية يوسف عليه السلام ، إذ قال :

{عسى الله أن يأتيني بهم جميعا} إذ كانت عنده قناعة تامـة أن يوسـف لـم يمـت ، و إنما غاب عنه خبره.

و قد قـال {بهم جميعـا} لأنهـم ثلاثـة : يوسـف ، و بنيـامين ، و الـذي قـال {فلن أبرح الأرض}

ثم قال :

{إنه هو العليم} بحالي.

{الحكيم} فيما يقضي في ملكوته.

و نقف هنا وقفة قصيرة مع هذه الدروس التربوية :

١- أنه أمام هذه المصيبة الكبيرة .. لم ينفعل بتصرف لا يليق ، أو بكلام خارج ، أو اتهام لأولاده ، لا يملك عليه من دليل.

و هذا هو تصرف من تربى على آداب الدين ، و التزم بتعاليمـه ، فمـا بالنـا لـو كان ذلك نبيا ..؟!!

وهذا أدب ينبغي أن نتحلـى بـه نحـن المسلمين ، وبطبيعـة الحـال : هـو الأليـق والأولى بالدعاة إلى الله ١ .

٢- أنه واجه خبر هذه المصيبة .. بالصبر ، بـل بالصـبر الجميـل ، الـدال علـى الرضا والتسليم لمُجْري هذه المصيبة ، و هو العليم الحكيم.

و هذا هو الواجب على كل مسلم إذا أصيب بمكروه ، فـي نفسـه ، أو ولـده ، أو ماله٢.

---

١ - الدرس رقم (٦٩)

٢ - الدرس رقم (٧٠)

يقول الحسن[١] : ما من جرعتين يتجرعهما العبد أحب إلى الله تعالى من : جرعة مصيبة يتجرعها بحسن صبر و حسن عزاء ..!! و جرعة غيظ يتجرعها بحلم و عفو ..!!

و عن ابن عباس[٢] : أن يعقوب أعطي على صبره على يوسف أجر مائة شهيد .

وكذلك : من احتسب من هذه الأمة في مصيبته : فله مثل أجر يعقوب عليه السلام.

٣- أن كل بداية محرقة لها نهاية مشرقة ، و أن كل محنة ظاهرة ، لا بد معها من منحة باطنة.

و هذا ما دفع بيعقوب عليه السلام لأن يقول {عسى الله أن يأتيني بهم جميعا}.

و لهذا ينبغي : أن تكون المصيبة ، أية مصيبة تنزل بالعبد ، داعية له إلى الأمل في فضل الله تعالى ، و إحسانه به ، إن لم يكن في الدنيا ففي الآخرة.

و في هذا ما فيه من العزاء و السلوى و حسن التصبر ، و كذلك : عدم التسخط بفعل أو قول لا يرضى الله تعالى عنه [٣].

٤- أن تكون ثقة العبد كبيرة في علم الله تعالى المحيط الشامل الواسع ، و في حكمته ورحمته في إنزال هذه المصيبة بهذا القدر، و في هذا الوقت ، وبهذا الشكل ..

وذلك : لأن يعقوب عليه السلام رد على علمه بهذه المصيبة، بالتفويض ، و التسليم لعلم الله تعالى و حكمته ..

و هذا هو قمة الإيمان و الرضا بقدر الله.

وكل من فعل ذلك ـ ونسأل الله تعالى أن يعيننا على ذلك ـ فهو في قمة الإيمان والرضا بقدر الله [٤] .

* * *

و كما أضرب عن كلامهم ، بقوله {بل سولت} : أضرب عنهم هم ..

{و تولى عنهم} أي : أعرض عنهم ، و انفرد دونهم ، و اعتزلهم ؛ إذ كمل حزنه ، وتجددت مصيبته الأولى.

١ـ القرطبي ٢٤٧/٩
٢ـ نفس المرجع
٣ـ الدرس رقم (٧١)
٤ـ الدرس رقم (٧٢)

{و قال يا أسفى على يوسف} و نسي ابنه بنيامين ، و كذلك ابنه الكبير ، بل استدعى شدة الحزن على مصيبته القديمة ، و جرحه الدامي ، في يوسف عليه السلام ، و كأنه يقول : تعال يا حزني فهذا وقتك.

و صار من شدة حزنه يبكي بكاءً جديدا شديدا ، حتى : {ابيضت عيناه من الحزن} في وحدته ، و على أزمته ، دون أن يشعر به أحد من أولاده.

و الآن ..

ضاع -كذلك- الذي كان يواسيه ، و يؤنس وحدته بعد أخيه .. ضاع بنيامين.

و مع كل هذا الحزن ، و كل هذا الألم ..!!

{فهو كظيم} أي : كاتم لحزنه ، لا يبثه لأحد.

و مما يزيد حزنه : أنه يعلم جيدا أن يوسف حيّ ، و لكنه لا يدري أين هو ؟

و مع ذلك : لا يبوح لأحد بهذا الشعور و هذا الإحساس ، إذ هو له كاتم و كاظم.

و هنا أيضا دروس تربوية لا ينبغي أن تمر دون تنبيه عليها أو إشارة إليها :

١- في قول يعقوب عند سماعه وقوع هذه المصيبة : {يا أسفى على يوسف}

و في قوله تعالى لأمة محمد ρ : {و لنبلونكم بشيء من الخوف و الجوع و نقص من الأموال و الأنفس و الثمرات و بشر الصابرين ❋ الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله و إنا إليه راجعون} ١

يلحظ جيدا : أن يعقوب لم يسترجع.

يقول سعيد بن جبير : لم يعط أحد غير هذه الأمة "الاسترجاع".

و هذا إنعام من الله تعالى بأمة محمد ρ.

خاصة و أن ثواب الاسترجاع عظيم.

يقول تعالى {أولئك عليهم صلوات من ربهم و رحمة و أولئك هم المهتدون} ١

فلينتبه إلى ذلك كل من يبحث عن مرضاة الله ٢.

٢- أن الحزن عند المصيبة ليس بمحظور ، و إنما المحظور : الولولة ، و شق الثياب ، و الكلام بما لا ينبغي.

يقول ρ : "تدمع العين ، و يحزن القلب ، و لا نقول ما يسخط الرب".

---

١ - البقرة ١٥٥-١٥٧

٢- الدرس رقم (٧٣)

و هذا من المشرع : رحمة كبيرة ، فإن ذلك من رقة القلب ، و قوة العاطفة ، و رهافة الإحساس .. و هذا مما لا يعاب عليه المرء ، ما دام لا يصل بالمرء إلى المحظور شرعا فيه[١] .

٣- أن كظم الانفعال : فضيلة ، سواء أكان هذا النفعال هو الحزن ، أم الغضب أو الغيظ.

و هو يحتاج إلى قوة إيمان بالله تعالى ، و وضوح تفويض إليه ، و دوام تسليم لقضائه[٢].

و عن رسول الله ρ أنه قال : "من كظم غيظا و هو قادر على أن ينفذه : دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يخيره من أي الحور شاء"[٣] .

و عن عمر رضي الله عنه أنه قال : من اتقى الله : لم يشف غيظه ، و من خاف الله : لم يفعل ما يريد ، و لولا يوم القيامة لكان غير ما ترون[٤] .

* * *

و مع هذا الحزن الذي اشتد بيعقوب عليه السلام ..!!
و مع هذه الوحدة التي يئن من آلامه فيها ..!!
و مع هذا البكاء الذي ابيضت له عيناه ..!!
و مع هذا الكظم الذي يتحلى به ، و الذي يجاهد فيه لإخفاء شعوره ..!!

لا ترق له قلوب بنيه ، ولا يرحمون ما به من إحساس بشدة وقع المصيبة ..!!
فلا يعزونه ، و لا يواسونه ، و لا يعللونه بالرجاء.
بل يقولون له مقسمين مستنكرين :

١- الدرس رقم (٧٤)
٢- الدرس رقم (٧٥)
٣- أخرجه الترمذي ..ك البر و الصلة ، باب كظم الغيظ ، ك صفة القيامة ، باب فضل الرفق بالضعيف (وقال) حسن غريب . وأخرجه ابن ماجه ..ك الزهد،باب:الحكم .
٤- مختصر منهاج القاصدين ص ١٨٢

(تـا لله تفتـأ تـذكر يوسـف حتـى تكـون حرضـا أو تكـون مـن الهـالكين)
والله إن أمرك
لعجيب . . !!
أما زلت تذكر يوسف ..؟
دعك من هذا .. فيوسف قد ذهب و انتهى أمره ، و أصبح ميئوسا من عودته.
و لو أنك بقيت على ذلك من الحزن على يوسف : ستضعف صحتك ، و تخور قواك ، و تصبح ضعيفا ، أو تكون من الهالكين الميتين.
هذا ..
و إن كـان الكلام يحمل فـي ظـاهره خوفهم عليـه ، و إشفاقهم لحالـه ، و جديـة المحاولة في منعه من البكاء و الحزن : غير أن الله تعالى أعلم بنواياهم و قصدهم من هذا الكلام مع أبيهم.
ولذلك :
(قال) لهم يعقوب : { إنمـا أشكو بثـي و حزنـي إلـى الله و أعلم من الله مـا لا تعلمون} أي : ما لكم و مالي ..!! إني لم أشتك إليكم ما بي ، و لم أحملكم همـي ، إنمـا أشكو إلى ربي ، الذي يطعمني و يسقيني ، و إذا مرضت فهو يشفيني ، و الذي يعلم ما بـي ، و الذي أعلم من علمـه و ممـا خصـني بـه مـا لا تعلمون ، كمـا أنـي أعلم من إحسان الله إليَّ ما يوجب حسن ظني به.
و ذلك أنه يعلم يقينا : أن رؤيا يوسف صادقة ، و أنه سيسجد له.
يروى : أنه قال لملك الموت : هل قبضت روح يوسف ؟
قال : لا
فأكد هذا رجاءه[١].
و يروى كذلك : أنه لما أخبره أولاده بسيرة الملك ، و عدله و خلقه ، و قولـه ؛ أحست نفسه أنه ولده ؛ فطمع ، و قال : لعله يوسف.
و قال : لا يكون في الأرض صديق : إلا نبي[٢].

❋❋❋

١ـ القرطبي ٢٥١/٩ ٢ـ القرطبي نفس المرجع .

و هنا درس تربوي واضح ١ .

حيث لا ينبغي أن يكون المشتكى لغير الله.
فهو الضار ، و هو النافع ، و هو الرؤوف الرحيم.
و من اشتكى لله همه : فرج الله همه.
و من نسي الله فيما همه : زاد الله عليه غمه.

***

ثم قال لهم بلغة الواثق في ربه ، المتفائل بإنجاز وعده ، الداعي لعدم اليأس من نتيجة البحث :

{يا بني اذهبوا} إلى مصر

{فتحسسوا من يوسف و أخيه} أي : اذهبوا للبحث عن يوسف و أخيه.

و كأنه يقول لهم : ذلك من أجلي أنا ، حيث لم يقل عن أخيكما ، فيكون البحث بدافع الأخوة ، لأنه يعلم أن هذا الدافع هو الذي أضاع يوسف.

و لم يبق إلا دافع الأبوة و البُنُوَّة ، و لذلك قال {عن يوسف و أخيه} فكأنه يقول عن ولديَّ.

و ليكن البحث بحواسكم كلها؛ إذ قال (فتحسسوا)

و التحسس : يكون في الخير، و التجسس يكون في الشر.

و يلاحظ : أنه يعلم جيدا أن ابنه بنيامين فقط محتبس في مصر.

فكيف وجههم إليها للبحث عن يوسف فيها.. أيضا ؟

يقال : إن ذلك راجع إلى فطنته و ذكائه.

حيث : تنبه على ذلك .. برد البضاعة أول مرة ، و احتباس أخيه ثاني مرة ، مع إظهار الكرامة لهم ، و العناية بهم في كل مرة.

١ـ الدرس رقم (٧٦)

ثم دعاهم إلى عدم اليأس من نتيجة هذا البحث قائلا :

{و لا تيأسوا من روح الله} لا تقنطوا من فرج الله و رحمته و إنعامه ، لأنكم مسلمون ، و أولاد نبي ، و من كان هذا حاله لا ييأس من رحمة الله أبدا.
{إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون} حيث إن قلوبهم مقطوعة عن الله ، أما المؤمنون فهم على صلة دائمة بربهم ، لا ييأسون من روح الله ، و لو أحاط بهم الكرب ، واشتد بهم الضيق.

***

وهنا : تبدو هذه الدروس التربوية .
١- تحقيق الآمال : يحتاج -مع الثقة في الله- إلى الأخذ بالأسباب.
و لهذا.. لا يمكن أن يتحقق الأمل: لكسول ، و لا لخامل ، بل لا بد من العمل ، و العمل الجاد.
{يا بني اذهبوا فتحسسوا}.
فيعقوب عليه السلام مع يقينه في تحقق وعد الله تعالى بتحقيق رؤية يوسف ، و هذا يقتضي التأكد من أنه حيّ : لم ينتظر حتى يظهر يوسف بنفسه ، بل بدأ في أخذ الأسباب في البحث عنه ١.
٢- أن التحسس مباح ، بل قد يكون واجبا ، و هو استعمال الحواس في معرفة وتحصيل المعلومات لتحقيق المقصود ، من جلب النفع و دفع الضر.
ما دام ذلك : لا يؤدي إلى إيذاء الغير ، أو الاطلاع على العورات ، أو أية مخالفة شرعية بصفة عامة ٢.
٣- أن الواجب إشاعة التفاؤل ، و الثقة في وعد الله تعالى ، و بث اليقين المساعد على هذا التفاؤل.
و كذلك : النهي عن القنوط و اليأس ، المثبط للهمة ، و المهلك للعزيمة ، و المقعد عن العمل ؛ إذ في ذلك إيذاء العباد ، و إفساد البلاد ٣.

---
١ ـ الدرس رقم (٧٧) ٢ ـ الدرس رقم (٧٨) ٣ ـ الدرس رقم (٧٩)

٤ ـ أن اليأس من رحمة الله ، و العياذ بالله تعالى : من الكبائر ١.
و لذلك : فالوقاية منه أمر مطلوب و مرغوب.

وبالتـــالي : فـــالعلاج منـــه أمـــر واجب مفروض ٢ .

***

و بهذا ينتهي المشهد الأول من الفصل السادس.
و لكن ماذا فعلوا في أمر أبيهم لهم.
هذا ما يجيب عنه المشهد التالي :

١ـ انظر : القرطبي ٢٥٢/٩
٢ـ الدرس رقم (٨٠)

المشهد الثاني

(لا تثريب عليكم اليوم)

(من الآية ٨٨ إلى نهاية الآية ٩٣)

(أ) مضمون المشهد .

عاد إخوة يوسف إلى مصر ، بناء على أمر أبيـــهم .
تحدوهم وصيته لهم بعدم اليأس من روح الله في تحقيق هدفـهم . .
ودخـــلوا على العزيز .
وعـرفهم بنفسه ، وعرفوه ..!!
واعترفوا بخطئهم وأخطائهم ..!!
وأعلنـــوا توبتهم وندمهم..!!
وقال (لا تثريب عليكم اليوم يغــفر الله لكم) .
وكلفهم يوسف بالذهاب إلى أبيـــــــــهم ، ومعهم قميصه الخاص به ، والذي يعرفه أبوه جيدا.
ثم أمرهم . . أن يحضروا إليه أباهـــــم ، وكل أهلهم من الشام إلى مصر .

(ب) آيـــــــات المشهد .

يقول تعالى

فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾
قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾

(ج) التفسير . . والدروس التربوية .

نعم ..

استمعوا إلى كلام أبيهم.

و اقتنعوا بالعودة إلى مصر ، لتحسس أخبار أخيهم ، والبحث عنه ، كما أمرهم أبوهم.

و خرجوا من أرض كنعان : لهذا الغرض ، و ليمتاروا الطعام كذلك.

و يعودون إلى مصر.

و يدخلون مصر للمرة الثالثة.

و يدخلون على عزيز مصر ، يوسف عليه السلام.

و في حديثهم هذه المرة : انكسار لم يعهد من قبل ، و شكوى من المجاعة ، تدل على ما فعلت بهم الأيام[١].

{فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا و أهلنا الضر} الجدب ، و القحط ، و قلة الطعام ، و ما ينتج عن ذلك.

{و جئنا ببضاعة مزجاة} و جئنا لشراء الطعام ، و ليس معنا من الثمن سوى القليل ، الذي لا يكاد ينفع.

{فأوف لنا الكيل و تصدق علينا} أي : أعطنا بهذا الثمن القليل ، الذي لا نملك غيره ، ما كنت تعطيه لنا قبل ذلك ، ألست القائل {ألا ترون أني أوفي الكيل}.

و أيضا {تصدق علينا} أي : بالمسامحة عن قلة الثمن ، أو زدنا على حقنا تكرما منك ، أو هب لنا أخانا [٢] .

{إن الله يجزي المتصدقين} يعني في الآخرة.

يا سبحان الله ..!!

الآن .. و الآن فقط : تغيرت لهجتهم ، و انكسرت حدتهم.

بل بلغ الأمر بهم : حد الاسترحام ..!!

و خاطبوه : بلغة الإيمان ..!!

و هنا : لا تبقى في نفس يوسف قدرة على المضي في تمثيل دور العزيز ، و التخفي عنهم بحقيقة شخصيته.

فقد انتهت الدروس ..!!

كما ضمن وصول الحقيقة إلى أبيه ، بعد أن كان لا يأمن على وصولها إليه قبل ذلك !!

و حان - من جهة ثالثة- وقت الكشف عن المفاجأة الكبرى ، التي لا تخطر لهم على بال ، و هي الإعلان عن حقيقة شخصيته ..!!

١- الظلال ١٣/ ٢٠٢٧

٢- انظر : الأساس ٢٦٨٥/٥

و لكنه يترفق بهم في الإفضاء بالحقيقة إليهم ، حيث يفعل ذلك شيئا.. فشيئا.

إذ يبدأ بأخذهم إلى الماضي البعيد الذي يعرفونه وحدهم ، و لم يطلع عليه أحد إلا الله سبحانه و تعالى١.

حيث : {قال} سائلا لهم : {هل علمتم ما فعلتم بيوسف و أخيه}.

و هذا هو التحقيق لقوله تعالى {و أوحينا إليه لتنبأنهم بأمرهم هذا و هم لا يشعرون} ٢.

و هو سؤال استفهام بمعنى : التذكير ، و التوبيخ ..!!

{إذ أنتم جاهلون} ؟ أي : هل عرفتم و تذكرتم ما فعلتم بيوسف ، وقت أن كنتم صغارا جاهلين ..؟

و في قوله هذا : دليل على أنهم كانوا صغارا في وقت أخذهم ليوسف من أبيهم ، وإلقائه في الجب.

و دليل كذلك : على أنهم لم يكونوا أنبياء.

و فيه كذلك .. دليل على أنه قد حسنت حالهم الآن ، حيث قالوا {إن الله يجزي المتصدقين} ، و قالوا {و إن كنا لخاطئين} في ما فعلنا ، لأنهم كبروا ، و لم يخبروا أباهم بما فعلوا في يوسف صغيرا ؛ حياءً ، و خوفا منه٣.

و بهذه الكلمات من يوسف : عادت إلى ذاكرتهم الصور القديمة ، الخاصة بأخيهم يوسف ..!!

و بهذه الكلمات : قفزَت إلى أذهانهم ظلالُ يوسف الصغير في ذلك الشيخ الكبير ، والعزيز المنيع ..!!

فنطقوا بهذه الكلمات على وجل :

{أئنك لأنت يوسف} ..؟!!

{قال : أنا يوسف} الذي ظلمتموه ، و أردتم قتله ، أنا يوسف الذي ترونه الآن ، وتحدثونه .

{و هذا أخي} الذي آذيتموه.

عن ابن عباس : كتب يعقوب عليه السلام إلى عزيز مصر يطلب رد ابنه.

١- انظر : الظلال ٢٠٢٧/١٣
٢- يوسف ١٥
٣- انظر : القرطبي ٢٥٦/٩

و في الكتاب :

من يعقوب صفي الله ابن إسحق نبي الله ابن إبراهيم خليل الله ، إلى عزيز مصر.

أما بعد ..

فإنا أهل بيت بلاء و محن ، ابتلى الله جدي إبراهيم بنمروذ و ناره ، و ابتلاني بولد كان لي أحب أولادي إلي ، حتى كف بصري من البكاء ، و إني لم أسرق ، و لم ألد سارقا.

و السلام.

فلما قرأ يوسف الكتاب : ارتعدت مفاصله ، و اقشعر جلده ، و أرخى عينيه بالبكاء ، وَعِيْلَ صبرُه ، فباح بالسر ، و قال لهم ما قال١.

و كان الإعلان عن نفسه لهم : مفاجأة ، بل مفاجأة كبرى ، يعلنها لهم يوسف.

و يذكرهم في عبارات قليلة رقيقة حانية ، بما فعلوه - مع يوسف و أخيه- وقت أن كانوا صغارا ، و في اندفاع الجهالة.

و لا يعنف على ذلك ..!!

و لا يعاتب بعد ذلك ..!!

بل ينتقل في حديثه سريعا إلى إنعام الله ، و فضله عليه ، و على أخيه ، و على الجميع ، فيقول :

{قد من الله علينا} بالنجاة و الملك ، و التجمع بعد الفرقة.

و يلاحظ : أنه بدأ حديثه معهم ، بذكر نعمة الله بالسلامة و الكرامة ، و لم يبدأ بالعتاب و الملامة.

بل لم يكن هناك في حديثه معهم -بالمرة- عتاب ، أو ملامة ..!!

وهو درس تربوي ٢ نتعلم منه : الأدب مع صاحب النعمة ؛ إذ ينبغي أن يكون أثرُها ظاهرا ، و ذكرُها باديا ، و الانشغالُ بها -عن غيرها- واضحا.

و لا يفوته إكمال الدرس الدعوي في هذا المقام .

وهو درس تربوي آخر ٣ . حيث يقول معللا سبب هذه النعم ، و معلما كيفية الوصول إلى هذه النعم :

{إنه من يتق و يصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين}.

١ـ القرطبي ٢٥٦/٩ ٢ـ الدرس رقم (٨١) ٣ـ الدرس رقم (٨٢)

أي : إن مَنْ يتق الله بترك معصيته ، و فعل طاعته ..!!

و كذلك : يصبر على قضائه و قدره ، و عن المعاصي ، و على الطاعات ..!!

فإنه من المحسنين.
و الله تعالى لا يضيع أجر المحسنين.
و على هذا .. فالمحسن : من اجتمع له .. التقوى و الصبر.
و لذا قالوا : من يثق بمولاه ، و يصبر على بلواه : لا يضيع أجره ، لا في دنياه ، ولا في عقباه ١.

* * *

و لأن الجو قد تغير ..!!
و المخبوء من حكمة الله تعالى .. قد ظهر ..!!
و الدروس قد آتت ثمارها ..!!
و تمثل لعيونهم صورة ما فعلوا بيوسف ..!!
و عرفوه الآن :
محسنا إليهم .. و قد أساؤا إليه ..!!
حليما بهم .. و قد جهلوا عليه ..!!
كريما معهم .. و قد وقفوا معه و منه موقفا غير كريم ..!!
فقد ..
اعترفوا له بالفضل ، و الأثرة عليهم في الخلق و الخلق ، و السعة و الملك ، وحسن التصرف ..
و أقروا له - تائبين إلى الله- بأنهم أساؤا إليه ، و أخطأوا في حقه.

١- الأساس ٢٦٨٦/٥

{قالوا تا لله لقد آثرك الله علينا} أي : فضلك علينا ، و اختارك بالعلم ، و الحلم ، والعقل ، و الملك.
{و إن كنا لخاطئين} أي : مذنبين ، متعمدين للإثم.

إنـــه : اعتـــراف بالخطيئـــة ، و إقرار بالذنب ، و تقرير لما يرونه من إيثار الله له عليهم ، بالمكانة و العلم و التقوى١.

و في ضمن هذا الاعتراف و الإقرار و التقرير : سؤال العفو.

و لكن ..

كيف يعفو .. و هم الذين فعلوا، و فعلوا ؟

و لمَ يعفُ .. و هو الآن قادر على التنكيل بهم ، و الانتقام منهم ..؟

و هم بالفعل يستحقون ..!!

و لكن أيضا ..

نحن في ساحة نبي ، يتحلى بِشِيَم الأنبياء ، و يتصف بأخلاق الكرماء.

و لذا ..

لم يعاقب ، و لم يعنف ، و لم يعاتب ..!!

بل : عفوٌ ، و صفحٌ، و إنهاءٌ للموقف المخجل ، و إنقاذ من موطن المذلة.

حيث

{قال لا تثريب عليكم اليوم} أي : لا تَعْيِيْرَ ، و لا تَوْبِيْخَ ، و لا مَلامَة عليكم اليوم.

و إذا كان هذا العفو و عدم المؤاخذة في هذا اليوم ، و هو يوم المؤاخذة : فالعفو والصفح و عدم الملام في غيره أولى.

كما زاد على ذلك الكرم بالعفو عنهم : كرما آخر ، و هو الدعاء بالمغفرة لهم.

إذ قال :

{يغفر الله لكم} و هذا .. سؤال لله أن يستر عليهم و يرحمهم.

أي : إذا رحمتكم.. و أنا الفقير القتور ..!! فما ظنكم بالغني الغفور ..؟

* * *

١ـ انظر : الظلال ١٣/ ٢٥٢٧

و هكذا ..

نجح يوسف عليه السلام في الابتلاء بالنعمة ، كما نجح في الابتلاء بالشدة ، إنه كان من المحسنين1.

و عن ابن عباس : أن رسول الله ρ أخذ بعضادَتَي الباب يوم فتح مكة ، و قد لاذ الناس بالبيت ..!!

فقال : الحمد لله الذي صدق وعده ، و نصر عبده ، و هزم الأحزاب وحده.

ثم قال : ماذا تظنون يا معشر قريش ..؟

قالوا : خيرا ، أخ كريم ، و ابن أخ كريم ، و قد قدرت.

قال : و أنا أقول كما قال أخي يوسف {لا تثريب عليكم اليوم}.

فقال عمر بن الخطاب : ففضت عرقا من الحياء من قول رسول الله ρ ، ذلك أني كنت قلت لهم حين دخلنا مكة : اليوم ننتقم منكم و نفعل.

فلما قال رسول الله ρ ما قال : استحييت من قولي٢.

***

ثم يُحَوِّلُ يوسفُ عليه السلام الحديثَ إلى موضوع آخر ..

و هو موضوع أبيه الذي ابيضت عيناه من الحزن ...!!

و الذي يتعجل إلى تبشيره ..!!

و الذي يَتُوقُ إلى لقائه ..!!

حيث قال :

{إذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا}

و لكن ..

كيف عرف يوسف أن رائحته سترد على أبيه بصره الكليل ..؟

ذلك مما علمه الله.

١ـ الظلال ٢٠٢٧/١٣

٢ـ القرطبي ٢٥٨/٩

و المفاجأة : تصنع في كثير من الحالات فعل الخارقة.

و مالها لا تكون خارقة ، و يوسف نبي رسول ، و يعقوب نبي رسول١ ..؟

و عن مجاهد : كان ذلك القميص .. هو الذي ألبسه الله لإبراهيم عليه السلام من حرير الجنة ، حين ألقي في النار.

ثم .. كساه إبراهيم لابنه إسحق.
ثم .. كساه إسحق لابنه يعقوب.
ثم .. وضع يعقوب هذا القميص في قصبة من فضة ، و علقه في عنق يوسف ، لما كان يخاف عليه من العين.
ثم. لَمَّا عَمِيَ يعقوبُ ، و أراد الله رد بصره : أخبر جبريلُ يوسفَ بأن أرسل قميصك إليه ، فإن فيه ريح الجنة ، و إن ريح الجنة لا يقع على سقيم ،و لا مبتلى إلا عوفي ٢.
ثم قال لهم كذلك :
{و ائتوني بأهلكم أجمعين} أي : بجميع بني يعقوب ، لتتخذوا مصر دارا.
قال مسروق : فكانوا ثلاثة و تسعين ، ما بين رجل و امرأة.
و بذلك ..
استراح إخوة يوسف ..!!
و انزاح كابوس ثقل الخطيئة ، و مرارة الإحساس بالذنب عنهم ..!!
و حملوا أجمل البشريات إلى أبيهم.
و خرجوا من مصر في اتجاه أرض كنعان ببلاد الشام.
و ننتقل معهم إلى المشهد التالي.

١ـ الظلال ١٣/ ٢٠٢٧
٢ـ انظر : القرطبي ١٥٩/٩

المشهد الثالث

(إني لأجد ريح يوسف)

(الآيتان ٩٤ ، ٩٥ فقط)

(أ) مضمون المشهد .

وخرج أولاد يعقوب من مصر بالبشرى
إلى أبيهم .
وقبل أن يصلوا ..!!
بل قبل أن يقتربوا من بلاد الشام ..!!
قال أبوهم لمن حوله :
(إني لأجد ريح يوسف)
ولم يصدقوه ..!!
بل ظنوه يهذي بقصته القديمة ، قصة
يوسف ، التي ما نسيها قط .

(ب) آيات المشهد .

يقول تعالى :

وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾

(ج) التفسير . . والدروس التربوية .

{و لما فصلت العير} أي : لما خرجت من مصر إلى الشام ، حاملة معها قميص يوسف ..

و نترك جواب الشرط ..!!

و نترك - كذلك- هذه العير ..!!

و ننتقل سريعا إلى بلاد الشام .. إلى أرض كنعان .. إلى بيت يعقوب عليه السلام.

حيث تقع مفاجأة عجيبة ..!!

و هي : جواب الشرط.

{قال أبوهم} لولد ولده ، و لمن كان معه في هذه اللحظة من أقاربه :

{إني لأجد ريح يوسف}

لا .. لا .. كل شيء إلا هذا ..!!

فما يخطرعلى بال أحد أن يوسف - بعد- في الأحياء، بعد هذا الأمد الطويل ..!!

و ما يصدّق أحد أن له ريحا يشمها هذا الشيخ الكفيف١ ..!!

و لكن شاء الله أن يحدث هذا الشيء الخارق للعادة ، و ما شاء الله كان. . !!

قال ابن عباس : هاجت ريح ، فحملت ريح قميص يوسف إليه ، و بينهم مسيرة ثمان ليال.

انظر : الظلال ١٣ / ٢٠٢٨

و قال الحسن : مسيرة عشر ليال.

و عنه أيضا : مسيرة شهر.

و لكن ..

كيف وصلت ريح القميص من هذه المسافة البعيدة ..؟

قال مجاهد : هبت ريح فحركت القميص ، ففاحت روائح الجنة في الدنيا ، و اتصلت بيعقوب ، فوجد ريح الجنة ، فعلم أنه ليس في الدنيا من ريح الجنة إلا من ذلك القميص ..!

فعند ذلك قال : {إني لأجد ريح يوسف} أي : أشم ريح يوسف.

و لأنه يدرك أنهم لا يجدون ما يجد ، و لا يشعرون بما يشعر به : فقد قال :

{لولا أن تفندون} أي : لولا أني أعرف أنكم تكذبون ذلك ، و لا تصدقون ما أقول.

و فعلا ..

{قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم}.

الذين قالوا ذلك : هم ولد ولده ، و أقاربه ، الذين لم يعرفوا الأخبار الآتية من مصر بعد.

و الذين : لم يكن لهم عند ربهم ، ما ليعقوب عند ربه.

الذين : لم يجدوا، و يشموا ما وجد و شم من رائحة يوسف[١].

و المعنى : إنك لفي خطئك الماضي ، من حب يوسف ، و انتظار عودته.

و الذي دفعهم إلى قول ذلك : هو أن يوسف -عندهم- كان قد مات منذ زمن بعيد.

و على هذا ..

فهو على يقين من أن يوسف حي ، و ستتحقق رؤياه ، و قد قرب زمن عودته ، وهذه رائحته، قد فاح عبيرها.

و من حوله : كانوا على يقين بأن البكاء الطويل على يوسف أذهب بصره ، و أن الانتظار الطويل ليوسف كاد يذهب عقله ، حيث أصبح يقول كلاما غير مفهوم ، مثل حكاية الرائحة هذه.

و نترك الحال في هذا المشهد على ما هو عليه.

١- انظر : المرجع السابق

و ننتقل سريعا إلى العير التي فصلت من مصر ، و التي وصلت روائح ما معها إلى بلاد الشام :

لنعرف أين هي ..؟

و ماذا حدث منها ..؟

و ماذا حدث لها ..؟

و ذلك في المشهد التالي ..

المشهد الرابع

(يا أبانا استغفر لنا)

(من الآية ٩٦ إلى نهاية الآية ٩٨)

(أ)   مضمون المشهد .

ووصل إخوة يوسف إلى أبيهم بالشام .
ومعهم البشرى ، التي اشتم ريحها من مسافات بعيدة ، وهي قميص يوسف .
فلما ألقاه البشير على وجهه :
تحقق ما قاله لهم يوسف ؛ إذ عاد إليه بصره .
وهنا . . وقد تمكن الإيمان من قلوب أولاده ، وكاد الندم على ما فعلوه سابقا يقتلهم..!!
فقالوا (يا أبانا استغفر لنا إنا كنا خاطئين) .

(ب)   آيات المشهد .

يقول تعالى

فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًاۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾

(ج)   التفسير . . والدروس التربوية .

و في هذا المشهد : نرى المفاجأة الكبرى ، و نرى الإيمان الصادق ، الذي مَنَّ الله به على إخوة يوسف ، كما نرى التوبة النصوح ، التي تتجلى في طلبهم من أبيهم أن يستغفر لهم.

{فلما أن جاء البشير} بقميص يوسف.

و هذا البشير : واحد من إخوة يوسف عليه السلام ، و هو الذي ذهب إليه بقميصه ، وعليه الدم الكذب قبل ذلك.

وقد قال لإخوته : قد علمتم أني ذهبت إليه بقميص التَّرْحَة ، فدعوني أذهب إليه بقميص الفَرْحَة.

و لكن ماذا فعل هذا البشير بالقميص ..؟

{ألقاه على وجهه} أي : عيني يعقوب تنفيذا لقول يوسف {ألقوه على وجه أبي}.

و ألقاه البشير بالفعل على عَيْنَيْ يعقوب ..!!

{فارتد بصير} أي : رد الله إليه بصره.

و وقعت الخارقة ..!!

و تحقق قول يوسف : {ألقوه على وجه أبي يأت بصيرا}.

و أصبح يعقوب ، في هذه السن ، و بعد العمى : بصيرا ، ليس بعينيه أي أذى.

حقا إنها إرادة الله .. إذا قال للشيء : كن .. كان ..!!

حقا .. إنها نعم الله .. يسبغها على من شاء من خلقه.

عن سفيان : لما جاء البشير إلى يعقوب ، قال له يعقوب : على أي دين تركت يوسف ..؟

قال : على الإسلام.

قال : الحمد لله .. الآن تمت النعمة١.

و قال الحسن : لما ورد البشير على يعقوب .. لم يجد عنده شيئا يكافئه به ..

فقال : و الله ما أصبت عندنا شيئا ، و ما خبزنا شيئا منذ سبع ليالي ، و لكن .. هون الله عليك سكرات الموت ٢ ..!!

يقول الإمام القرطبي : و في هذا دليل على جواز إظهار الفرح ، بعد زوال الغم والترح ٣ ..!!
وهو درس تربوي ٤ : يؤكد على جواز إظهار الفرح بنعم الله تعالى .

* * *

و على الفور : يلتفت يعقوب ، و قد رأى بعينيه ، أولاده ، و أحفاده ، و أقاربه ، والمحيطين به ، بعيني رأسه ، بعد هذا العمى الذي دام سنوات ، و بعد هذا الحزن الذي ابيضت منه عيناه .. و يعلمهم درسا تربويا هاما ٥ ، حيث {قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون} فلم تصدقوني ؟

١ـ القرطبي ٩/ ٢٦١
٢ـ المرجع السابق
٣ـ المرجع السابق
٤ـ الدرس رقم (٨٣)
٥ـ الدرس رقم (٨٤)

ولو فهمتم ، و اتقيتم ربكم ، و صبرتم على طاعته ، و عن معصيته : لكنتم من المحسنين ، و لما كان منكم ما كان ، و لما حدث لنا و لكم ما حدث ..!!
و هو يشير بقوله هذا : إلى قوله السابق {إنما أشكو بثي و حزني إلى الله و أعلم من الله ما لا تعلمون} ١.
و هو يقصد بما يعلمه من الله في هاتين الآيتين : قوله ليوسف ، بوحي من ربه سبحانه {و كذلك يجتبيك ربك و يعلمك من تأويل الأحاديث و يتم نعمته عليك و على آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم و إسحق إن ربك عليم حكيم} ٢.
و إلى هنا ..
و مع هذه الفرحة ..
و مع وقع هذه الخارقة على الجميع ..
كان إحساس أولاد يعقوب بالذنب ، و ارتكاب الإثم في حق أبيهم : يضع على أعناقهم أحمالا و أثقالا من الندم ، و الرغبة من التخلص من هذا الإثم.
و لذا ..

{قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين}
فهم إذن : يريدونها توبة كاملة ، و تصحيحا شاملا ..
اعتراف ليوسف بالخطأ ، مع الندم على ارتكابه ، و طلب الصفح عنه ، و المغفرة
منه ..!!
واعتراف ـ كذلك ـ لأبيهم بالخطأ ، مع الندم على ارتكابه ، وطلب الصفح عنه ، والمغفرة منه . . !!
و لذا .. يقول علماء الإسلام :
من آذى مسلما في نفسه ، أو ماله ، أو ولده ، أو غير ذلك ، ظالما له : فإنه يجب عليه أن يتحلل منه ، و يخبره بالمظلمة و قدرها.
و يترتب على هذا الحكم سؤال .. و هو : هل ينفع التحلل المطلق أوْ لا ..؟
وفيه خلاف.
و الصحيح : أنه لا ينفع.
ففي صحيح البخاري و غيره ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ρ : " من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء ، فليتحلله منه اليوم ، قبل ألا يكون دينار و لا درهم ، إنكان له عمل صالح : أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له

١ـ يوسف ٨٦ ٢ـ يوسف ٦

حسنات : أخذ من سيئات صاحبه ، فحمل عليه.
قال المهلب : فقوله ρ : "أخذ منه بقدر مظلمته" يجب أن تكون المظلمة معلومة القدر ، مشارا إليها مبينة ١.

وهذا درس تربوي غاية في الأهمية : ينبغي أن يعيه جيدا ، كل من يرضى بالله ربا، وبالإسلام دينا ، وبمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبيا ورسولا.٢

❋❋❋

هذا ..
و إن كان يوسف قد استجاب لسؤالهم و طلبهم المغفرة فورا بقوله {يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين}٣

فإن يعقوب عليه السلام :
{قال سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم}
و هذه ليست إجابة فورية ، مثل إجابة يوسف ، بل فيها تسويف و تأخير.
و لكن .. لماذا ..؟
لا بد و أنه لا يزال في قلب يعقوب شيئا من بنيه ، و لذا لم يَصْفُ لهم بعد.
و لهذا ..
فسوف يستغفر لهم ، بعد أن يصفو و يسكن و يستريح.
و لم لا ..؟
و يعقوب عليه السلام بشر ، يحمل قلبا إنسانيا مكلوما .
و قد يكون هذا التأخير و التسويف :

١ـ انظر : القرطبي ٢٦٢/٩
٢ ـ الدرس رقم (٨٥)
٣ ـ يوسف ٩٢
٤ ـ انظر: الظلال ١٣ / ٢٠٢٨

ليتعرف حالهم -أولا- في صدق التوبة ١.
أو إلى أن يسأل يوسف عنهم ٢.
و من جهة ثالثة : قد يكون هذا التأخير ، لوقت أرجى في الإجابة.
عن ابن عباس : أخّر دعاءه إلى السحر.
و لذلك ..

ورد في دعاء الحفظ -من سنن الترمذي- عن ابن عباس أنه قال : بينما نحن عند رسول الله ρ ، إذ جاءه علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فقال: بأبي أنت و أمي .. تفلّت هذا القرآن من صدري ، فما أجدني أقدر عليه ..!!

فقال له رسول الله ρ : "أفلا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ، و ينفع بهن من علمته ، و يثبت ما تعلمت في صدرك ؟"

قال : أجل يا رسول الله ، فعلمني.

قال : "إذا كان ليلة الجمعة ، فإن استطعت أن تقوم في ثلث الليل الآخر ، فإنها ساعة مشهودة ، و الدعاء فيها مستجاب ، و قد قال أخي يعقوب لبنيه {سوف أستغفر لكم ربي} يقول حتى تأتي ليلة الجمعة .." الحديث.

و عن محارب بن دثار ، قال : كنت آتي المسجد ، في السحر ، فأمر بدار ابن مسعود ، فأسمعه يقول : اللهم .. إنك أمرتني : فأطعت ، و دعوتني : فاستجبت .. و هذا سحر فاغفر لي.

فلقيت ابن مسعود ، فقلت : كلمات سمعتك تقولهن في السحر ..؟

فقال : إن يعقوب أخَّرَ بنيه إلى السحر بقوله {سوف أستغفر لكم ربي}.

* * *

و بعد هذا الوعد من يعقوب لبنيه في استغفاره لهم ..

أراد أن يعلمهم درسا تربويا هاما ٣.

١ـ الأساس ٥/٢٦٨٦

٢ـ القرطبي ٩/ ٢٦٣

٣ ـ الدرس رقم (٨٦)

هو ربطهم بالله تعالى ، و تعليمهم مراقبته في السر و العلن ، و الخشية منه في الفعل والقول ، و التقرب إليه بالفعل و الترك.

و كذلك : إعلامهم أننا نستغفر فقط ، و نتوب فقط ، و نحسن فقط ..!!

و أما المغفرة : فمن الله ..!!

و أما الرحمة : فمن الله ..!!

و أما الإنعام : فمن الله سبحانه و تعالى ..!!

إذ قال :

{إنه هو الغفور الرحيم} فلا غفران إلا منه ، و لا رحمة إلا منه ، و يغفر لمن استغفر ، و يتوب على من تاب ، و يرحم المحسنين.

و بذلك :

ينتهي الحوار بين يعقوب عليه السلام و أولاده.

و قد صفا الجو ، و تحسنت الأحوال ..!!

عفا عنهم يوسف.

و استغفر لهم أبوهم.

و عاد - بينهم بعد العمى- بصيرا.

و جمعوا أهلهم - كلهم- ليبدؤا في رحلة الذهاب إلى مصر ، حيث أخوهم ، و قد صار عزيزها.
و نتركهم .. لننتقل إلى المشهد التالي ، عند يوسف عليه السلام.

المشهد الخامس

(ورفع أبويه على العرش)

(الآيتان ٩٩ ، ١٠٠ فقط)

(أ) مضمون المشهد .

وأخذ إخوة يوسف أباهم ، وأهلهم أجمعين ، من بلاد الشام .
وذهبوا بهم إلى مصر ، كما طلب منهم يوسف عليه السلام .
ولما دخلوا على يوسف: ضم إليه أبويه

تكريـــــــــما واحـتراما .

وأمَّـنَ الجميـع .

ورفـع أبويه عـــلى عرش مصر ..!!

وتحـقق تـأويل رؤياه السابقة ، القديمــة .

وأخـذ يعـدد نعم الله وأفضاله عليه وعلى أهله ، أمــام جميع الحاضرين ، من : وزراء ، وموظفيـن ، وغيرهـم .

وبالضرورة : أمام أهلـه كذلك .

كل ذلك : في خشــوع وإخبات وشـكر لله رب العالمـين، وردالأمـروالفضل في كل ذلك إليه .

(ب) آيات المشهد .

يقول تعالى

فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ



(ج) التفسـير . . والدروس التربوية .

و في هذا المشهد : نرى آل يعقوب جميعا ، صغيرهم و كبيرهم ، ذكرهم و أنثاهم ، في قصر يوسف عليه السلام ، بمصر ، و الفرح يغمر المكان ، و البهجة تعلو وجوه الجميع.

{فلما دخلوا على يوسف} أي : فلما صاروا عند يوسف في قصره.

إذ يروى : أنه خرج بحاشيته و جنده و أمرائه لاستقبالهم على مشارف البلاد ؛ تكريما لوالده ، و احتفاء بمقدمه.

{آوى إليه أبويه} أي : ضم إليه ، و أخذ في رفق و حنان و تكريم عنده ، أبويه.

يقولون : و هما أبوه و خالته ، و الخالة : أم ، و كانت أمه قد ماتت قديما.

ويقول ابن كثير : أبواه . . هما أبوه وأمه ، وظاهر القرآن يدل على حياتها ١ .

وهذا أول شئ فعله : وهو اعتناؤه بأبويه ، وإراحتهما من عناء السفر ، وإنزالهما المكان اللائق بهما .

وهو درس تربوي ٢ : يرينا مدى وجوب اعتناء الإنسان بوالديه ، وتكريمه لهما ، مهما بلغ العلا في المناصب والدرجات .

* * *

و التفت بعد ذلك للجميع :

{و قال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين} أي : أقيموا في مصر ، و اسكنوا بها ، آمنين إن شاء الله ، من : القحط ، و الجوع ، أو من فرعون ، و كانوا لا يدخلونها إلا بجوازه ٣.

و بالطبع : هيأ للجميع -آمرا- أماكنهم ، و أحوالهم ، و أعمالهم ، و معايشهم ، و كل ما فيه استقرارهم.

ثم جمعهم كلهم في مجلس واحد ، و اجتماع موسع ، يبدو أنه كان فيه كبار رجالات هذه الدولة ، و أمراؤها.

و أصدر قرارا عاما.

و أعلن عن تأويل رؤياه صغيرا.

ثم.. تحدث عن نعم الله عليه.

ثم ..ختم كلامه بإعلان الدنيا كلها ، و إعلام أهلها .. بأن مرد الأمر لله تعالى ، العليم بخلقه و مصالحهم ، الحكيم في أقواله و أفعاله و قضائه.

و إلى تفاصيل ذلك : تعالوا بنا.

١ـ انظر ابن كثير .
٢ـ الدرس رقم (٨٧)
٣ـ انظر: القرطبي٥/٢٦٣

فقد كان هذا القرار العام : أنه { رفع أبويه على العرش} أي : أجلسهما معه على سرير العرش.

و في القرطبي : و قد يُعبّر بالعرش .. عن المُلك ١.

و معنى ذلك : أنه تم من البداية ، و من أول الأمر .. رفع شأن أبويه في هذه المملكة الواسعة ، التي يتصرف فيها ، و يدير شئونها.

و ذلك : بالكيفية المناسبة لهذا الأمر ، و هذا العصر ، و هذه البلاد.

المهم .. أن يوسف رفع أبويه على العرش.

{و خروا له سجدا} أي : خر له أبواه و إخوته الأحد عشر سجدا.

و كانت تحيتهم : أن يسجد الوضيع للشريف ، و الصغير للكبير ، و قد نسخ الله ذلك كله في شرعنا ، و جعل الكلام بدلا منه ٢.

و هنا .. اقشعر جلد يوسف ، خشية لله ، و إحساسا منه بإنعامه عليه ، و تحقيقه رؤياه.

{وقال} موجها الكلام إلى أبيه ، إذ هو الذي سمع منه ، هذه الرؤيا ، أول الأمر ، وهو الذي نصحه بخصوصها.

{يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل} وهي : التي قصصتها عليك ، و قلتها لك سابقا {إني رأيت أحد عشر كوكبا و الشمس و القمر رأيتهم لي ساجدين} ٣.

أي : هذا مآل رؤياي ، وعاقبتها ، و تفسيرها

{قد جعلها ربي حقا} أي : صحيحة صدقا.

و هذا من إنعام الله علي ، و إحساني لي.

ثم أخذ عليه السلام : يحدث بنعم الله الكثيرة عليه ، شكرا لربه ، و تعليما لأهله ، وإعلاما للدنيا كلها ، إذ قال :

{و قد أحسن بي} إحسانا كثيرا و فيرا.

و من ذلك : إحسانه بي ..

{إذ أخرجني من السجن}

أولا : رد الفضل لله تعالى في قوله {أخرجني} و لم يقل (خرجت) ،

و ثانيا : ذكر إخراجه من السجن فقط ، و لم يذكر الجب.

١ـ القرطبي ٩/ ٢٦٤ ٣ـ يوسف ٤

٢ـ انظر : القرطبي ٢٦٥/٩

و هذا من كمال ذوقه و أدبه مع إخوته ، حيث إنه قد قال لهم-قبل ذلك- {لا تثريب عليكم} فلا يناسب إعادة الكلام عما عفا عنه و تسامح عن حقه فيه.

وهذا درس تربوي ١ : في أدب العتاب ، ينبغي أن نفطن إليه ، إحتراما للمشاعر ، واستدامة للمحبة .

* * *

ثم قال : {و جاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني و بين إخوتي} أي : من بعد أن أفسد الشيطان بيني و بين إخوتي ، فتفرق بنا الزمان ، و تباعدت بيننا الديار : جاء الله بكم ، و أنعم عليَّ بعودتكم من البادية.

و أخيرا : أعلن للدنيا كلها .. أن ذلك الذي تم : كان لطفا ، و رفقا ، و رعاية من الله تعالى ، له و لهم .

حيث قال في صيغة تعليمية تربوية عامة :

{إن ربي لطيف لما يشاء} لطيف في قدره ، لطيف في قضائه ، لطيف في صنعه ، لطيف بخلقه ، لطيف لما يشاء.

و هو يحقق سبحانه مشيئته بلطف و رقة خفية ، لا يحسها الناس ، و لا يشعرون بها ، و لكن ينعمون فقط بآثارها ، و فضل الله عليهم فيها ، إن كانوا يشعرون ..!!

ثم ختم كلامه في هذا المجلس الكبير ، و الاجتماع الموسع ، و الاحتفال البهيج بقوله {إنه هو العليم الحكيم}.

يا سبحان الله ..!!

بعد هذه الأعوام الطوال ، و الأحداث الجسام ، و العبر و العظات : يُخْتَمُ الكلام في هذه القصة من الابن النبي ، بنفس العبارات والألفاظ ، التي بُدِئَ بها الكلام في هذه القصة من الأب النبي الذي قال : {إن ربك عليم حكيم} ٢

١ـ الدرس رقم (٨٨) ٢-الآية رقم ٦

و ذلك : ليتوافق البدء و الختام ، حتى في العبارات و الألفاظ ١.

و هذا : من بلاغة القرآن.

و بهذا ينتهي الدرس ..!!

و ينتهي الاحتفال ..!!

و ينتهي المشهد.

و إلى المشهد التالي.

١ـ انظر : الظلال ١٣/ ٢٠٢٩

المشهد السادس

(توفني مسلما وألحقني بالصالحين)

(الآية ١٠١ فقط)

(أ) مضمون المشهد .

فـــــي الختام :
يعترف يوسف عليه السلام.. بنعم الله . . شاكرا ..!
ويقر.. بقدرته تعالى وإحاطته،وولايته .. عابدا .!
ويتقدم لربه.. بمطالبه وأمنياته . . راجيا ..!

(ب) آيات المشهد .

يقول تعالى

وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّاۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ



(ج) التفسير . . والدروس التربوية .

و في هذا المشهد : نرى يوسف عليه السلام .. بعد أن ينتهي اللقاء ، و العناق والفرحة ، و الابتهاج ..!!

ينزع نفسه من الجاه و السلطان ، و الرغد ، ليتجه إلى ربه في تسبيح الشاكر الذاكر ، كل دعوته، و رجائه ، و هو في أبهة السلطان ، و في فرحة تحقيق الآمال والأحلام : أن يتوفاه ربه مسلما ، و أن يلحقه بالصالحين ١.

و يلاحظ : أنه طلب ذلك و هو النبي المعصوم : ليقتدي به قومه ، و من بعده ممن ليس مأمون العاقبة ٢.

١ـ الظلال ٢٠٢٩/١٣ ٢ـ الأساس ٢٦٨٧/٥

و قد بدأ لقاءه مع مولاه : بذكر نعمه عليه ، حيث قال :

{رب قد آتيتني من الملك} أي : بعض الملك ، لأن ملك مصر ما كان كل الملك ١.

و المعنى : آتيتني منه سلطانه و مكانه و جاهه و ماله .. فذلك : من نعمة الدنيا ٢.

{و علمتني من تأويل الأحاديث} أي : بعض علم التعبير ، لأن علم التعبير ما كان كل العلوم ٣.

و المعنى : علمتني إدراك مآلاتها ، و تعبير رؤاها .. فذلك : من نعمة العلم ٤.

و بعد أن عدد النعم .. أثنى على ربه بقوله : {فاطر السماوات و الأرض} أي : يا رب ..!! يا خالق السماوات والأرض ، و مبدئها ، و منشئها ، و مخترعها على غير مثال سبق ، و على حال من الإبداع و الإعجاز و الحكمة..!!

{أنت و ليي في الدنيا و الآخرة} أي : ناصري ، و متولي أموري في الدنيا ، و المنعم علي بالعفو و الغفران ، و الرضا، في الآخرة.

و بعد تعداد النعم ، و الثناء على ربه : ذكر طلبه و حاجته التي ليست من هذا القبيل الذي ذكره ، بل هي أبقى و أغنى و أنفع.

حيث قال : {توفني مسلما} أي : خذني إليك و أنا على نعمة الإسلام.

{و ألحقني بالصالحين} أي : اجمعني بهم في مستقر رحمتك و رضاك.

و هو يقصد يهم : آباءَه الثلاثة .. إبراهيم و إسحق و يعقوب ٥.

و هكذا .. يتوارى الجاه و السلطان ..!!

و تتوارى : فرحة اللقاء ، و اجتماع الأهل ، و لمَّة الإخوان ..!!

و يبدو المشهد الأخير : مشهد عبد ، فرد ، يبتهل إلى ربه : أن يحفظ له إسلامه حين يتوفاه إليه ، و أن يلحقه بالصالحين بين يديه.

حقـا ..إنـه النجـاح المطلـق فـي الامتحان الأخير ٦.

❊❊❊

١ـ القرطبي ٢٦٩/٩
٢ـ الظلال ٢٠٢٩/١٣
٣ـ المرجع السابق .
٤ـ المرجع السابق
٥ـ القرطبي ٢٧٠/٩
٦ـ الظلال ٢٠٣٠/١٣

يقول الإمام القرطبي١ : فتوفاه الله طاهرا طيبا ρ بمصر.
و دفن في النيل ، في صندوق من رخام.
و ذلك أنه : لما تشاح الناس عليه ، كل يحب أن يدفن في مَحَلّتهم ، لما يرجون من بركته ، و اجتمعوا على ذلك ، حتى هموا بالقتال ، فرأوا أن يدفنوه في النيل ، من حيث مفرق الماء بمصر ، فيمر عليه الماء ، ثم يتفرق في جميع مصر ، فيكونون فيه شركاء ، ففعلوا.
فلما خرج موسى ببني إسرائيل من مصر ، أخرجه من النيل.
و نقل تابوته: بعد أربعمائة سنة ، إلى بيت المقدس ، فدفنوه مع آبائه ؛ لدعوته {و ألحقني بالصالحين}.

❊❊❊

و هنا .. قد يرد سؤال .. مؤداه : كيف يتمنى يوسف عليه السلام الموت ، مع قول النبي ρ : "لا يتمنين أحدكم الموت" ؟
و الجواب من عدة وجوه :
الأول : يحتمل أن يوسف عليه السلام قال ذلك عند احتضاره ، و على هذا فلا إشكال.
و قد ثبت في الصحيحين ، عن عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله ρ جعل يرفع إصبعه عند الموت و يقول : "اللهم في الرفيق الأعلى" ثلاثا.
الثاني : و يحتمل أنه سأل ذلك حقيقة ، و في غير الاحتضار .. و كان ذلك سائغا في ملتهم.

✲✲✲

١ـ المرجع السابق.

أما في ديننا : فلا يجوز أبدا ، إلا عند وقوع الفتن في الدين.

بدليل : ما في الصحيحين :لا يتمنين أحدكم الموت ، لضر نزل به ، إما محسنا : فيزداد ، و إما مسيئا : فلعله يستعتب ، و لكن .. ليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرا لي ، و توفني إذا كانت الوفاة خيرا لي".

و عند الإمام أحمد ، عن أبي هريرة ، عن النبي ρ ، أنه قال : "لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ، و لا يدع به من قبل أن يأتيه ، إلا أن يكون قد وثق بعمله ، فإنه إذا مات أحدكم انقطع عنه عمله ، و إنه لا يزيد المؤمن عمله إلا خيرا".

و هذا : فيما إذا كان الضر خاصا به.

و أما في فتنة الدين : فيجوز سؤال الموت.

بدليل .. إخبار الله تعالى عن سحرة فرعون ، لما أراد فرعون صرفهم عن دينهم ، وهددهم بالقتل ، {قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا و توفنا مسلمين}.

و مريم عليها السلام : لما علمت أن الناس يقذفونها بالفاحشة ، لأنها لم تكن ذات زوج ، و قد حملت و وضعت ، {قالت يا ليتني مت قبل هذا و كنت نسيا منسيا}.

و في حديث معاذ الذي رواه الإمام أحمد و الترمذي : "و إذا أردت بقوم فتنة : فاقبضني إليك غير مفتون".

إلى غير ذلك من الأدلة.

و بهذا ينتهي المشهد الأخير من هذا الفصل الأخير من القصة.

و لم يبق إلا الخاتمة ،

وهي : ما يلي . .

الخاتمة

(من الآية ١٠٢ إلى نهاية السورة . . الآية رقم ١١١)

وفيها :

(١)   علاقة خاتمة السورة ببدايتها .

(٢)   مدى عناد الكفار وعدم اهتدائهم بالآيات المسطورة والمنظورة

.

(٣)   بيان طريق الدعوة إلى الله .

(٤) مواساةالرسول صلىالله عليه وسلم بماحدث لإخوانه الأنبياء.

(٥) الهدف من سوق القصص القرآني .

آيات المشهد .

يقول تعالى :

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

التفسير ... والدروس التربوية .

أيها الإخوة -في الله- و الأخوات.
السلام عليكم و رحمة الله و بركاته.
و بعد ..
فقد انتهت قصة يوسف عليه السلام .
و لكن لم تنته سورة يوسف ؛ إذ بقيت لنا خاتمة السورة.
و هي موضوع لقائنا هذا.

❋❋❋

أولا : علاقة خاتمة السورة ببدايتها .

و قبل أن ندخل في تفاصيل هذه الخاتمة الكريمة : نذكر بمطلع و مقدمة هذه السورة.
حيث سبق أن قلنا : إن فيها : الحديث المباشر إلى النبي ρ ، و معه.
و فيها كذلك : الحديث عن القرآن الكريم ، و الإشارة إلى ما فيه من {أحسن القصص} ، و أنه الطريق المؤدي إلى رجاحة العقل ، و النجاة من الغفلة المهلكة ..!!
و نقول هنا .. إن الخاتمة تدور حول نفس الهدف، وفي ذات موضوع المقدمة.
فهي : حديث مباشر مع النبي ρ. و كذلك : حديث عن القرآن الكريم ، و أنه هدى ورحمة لمن آمن به.
و لنستمع إلى بعض آيات هذه الخاتمة.
يقول تعالى :
{ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك و ما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم و هم يمكرون ❋
و ما أكثر الناس و لو حرصت بمؤمنين ❋ و ما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين} ١.
خطاب مباشر للحبيب ، و مع الحبيب ρ ، بعد هذه القصة الشيقة الطويلة.
فيه : استخلاص العبرة ، و قطف ثمار القصة ، من الإسقاط على الواقع الذي يعيشه عليه الصلاة و السلام.

---
١ ـ يوسف ١٠٢ ـ ١٠٤

{ذلك} أي: ما قصصناه عليك ، و أنزلناه وحيا ، في كتاب الله ، يتلى إلى يوم القيامة.

{من أنباء الغيب} من الأخبار الغائبة عنك و عن أمتك ، و التي لا تعرفها أنت ، و لا يعرفونها هم ، لا من كتاب سبق ، و لا من محدث بها غيرك.

{نوحيه إليك} إنما هي وحي منا إليك ، أنعمنا عليك بإنزاله ، و عليهم بتسجيله لهم في كتاب .

و على كل حال : فلا شك فيه ، و لا ارتياب في مصدره.

{و ما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم و هم يمكرون} و هي وقائع و أحداث و انفعالات لم تحضرها ، و لم تشاهدها ، و لم تعاشر أصحابها.

بل ما كنت معهم أو عندهم حينما عزموا أمرهم ، و خططوا خطتهم للمكر بأخيهم.

و ما دام الأمر كذلك : من حيث إنك لم تعرف هذه القصة و لا تفاصيلها ، من : كتاب سابق ، و لا من محدث بها ، فضلا عن كونك لم تر أصحابها ، و لم تشاهد وقائعها ..!!!

و إذا كانت هي من أنباء الغيب الماضي السحيق ، و بهذه الجودة و البلاغة ، والصدق في تصوير الحدث ، و الدقة في بيان النزعات و النزوات و النزغات ، و الحب ، والبغض ، و الأحقاد ، و كل المشاعر ..الخ.

فكيف عرفتها إذن ..؟

إنه لا سبيل إلى ذلك إلا بالوحي الصادق ، ممن لا يملك الغيب إلا هو ، سبحانه وتعالى.

و ينبغي أن يلحظ جيدا : أن هذا الكلام و إن كان خطابا مباشرا مع النبي ρ .. فالمراد منه إعلام القوم بصدقه ، و إعلانهم بضرورة الإيمان به ، و الاهتداء بما يوحى إليه.

و هذا ما كان يحرص عليه النبي ρ بشدة ، جعلت رب العزة سبحانه و تعالى يقول له: مخففا عنه ، و مهونا عليه الأمر ، {لعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا} ١.

و هنا يقول له رب العزة : {و ما أكثر الناس و لو حرصت بمؤمنين} يعني : إذا كان هؤلاء إخوة يوسف ، و على دينه ، و قد فعلوا ما فعلوا مما عرفت و ما لم تعرف ..!!

فماذا تنتظر من هؤلاء المعاندين ، الذين ليسوا بإخوتك ، وليسواعلى دينك ..؟

أتظن أنهم لما سألوك عن هذه القصة ، و أنزلنا عليك تفاصيلها في آيات كريمة : سوف يؤمنون بها..؟

١ـ الكهف ٦

كلا . . إنهم لا يؤمنون . . !!
ثم .. أتحزن كل هذا الحزن ، و تغتم كل هذا الغم ، لعدم إيمانهم بها ..؟
كلا .. لا تحزن ، و لا تغتم لعدم إيمانهم بها ، أو بغيرها.
لأنك : {ما تسألهم عليه من أجر} فيكون انصرافهم رغبة عن دفع هذا الأجر ، أو حزنك لعدم نوال هذا الأجر.
لا هذا و لا ذاك .. إنما هم قوم لم يرد الله هدايتهم بعد.
و لذلك :
فإن ما تقوله لهم ، مما يوحى إليك ، و ننزله عليك ، من هذا القصص أو غيره :
{إن هو إلا ذكر للعالمين} أي : ما هو إلا تذكرة ، و دعوة للهداية ، لكل الناس ، في مشارق الأرض و مغاربها ، و أزمانها و عصورها.
يرفع الله به شأن من اهتدى بهديه ، و استضاء بنوره ، أياً مَنْ كان ، و أياً ما كان ، في أي عصر ، و في أي مكان ، و ليس خاصا بمن عاندك و خالفك فقط.

***

و في هذا نلحظ هذه الدروس التربوية :
١ـ إعلاء شأن النبي ρ ، و علو منزلته ، بشرف الخطاب المباشر له من رب العزة سبحانه {نوحيه إليك} ، و اختصاصه بإعلامه بهذا الغيب النافع المفيد ، المليء بالعبر والدروس ، التي تحتاجها الجماعة الإسلامية في بدء عهدها ، و في كل عهودها ١.
٢ـ أنه ليست العبرة ـدائماـ بالكثرة ٢، فـ {كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله و الله مع الصابرين}٣ ، {و يوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا و ضاقت عليكم الأرض بما رحبت} ٤ .

---

١ ـ الدرس رقم (٨٩)
٢ ـ الدرس رقم (٩٠)
٣ البقرة ٢٤٩
٤ ـ التوبة ٢٥

٣- أن كتاب الله تعالى ، و سنة رسوله ρ : ذكر ، و شرف ، لكل من عمل بهما ، وتمسك بهديهما في العالمين.
و أنه لا علو لشأن هذه الأمة ، و لا رفعة لقدرها ، و لا تقدم لخطواتها : إلا إذا كان شرعُ الله : هاديها ، و كتابُه : رائدَها ، و سنةُ نبيه : مصابيح الدجى فيها ١.

* * *

ثانيا : بيان مدى عناد الكفار ، وعدم اهتدائهم بالآيات المسطورة والمنظورة .

أيها الإخوة - في الله - و الأخوات :
بعد هذا التشريف بالخطاب الإلهي لمحمد ρ ..!!
و بعد هذه التهدئة لانفعالاته النفسية ، بسبب عدم إيمان قومه ..!!
يوضح لـه رب العزة - بعد بيان عدم اهتدائهم بالآيات المسطورة- عدم اهتدائهم بالآيات المنظورة كذلك ، و النتائج المترتبة على هذا العناد.
فيقول سبحانه :
{و كأين من آية في السماوات و الأرض يمرون عليها و هم عنها معرضون ❋ و ما يؤمن أكثرهم بالله إلا و هم مشركون ❋ أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة و هم لا يشعرون} ٢.
و إذا كان أمرهم بالنسبة لما نوحيه إليك يا محمد ، وما نخبرك به ، مما هو مسطور لديك : عدم إيمان أكثرهم ، و عدم اهتداء معظمهم ، خاصة و أنك لا تسألهم عليه أجرا - فيكون سببا لبعدهم عنك ، و عدم سماعهم لك ، و اهتدائهم بما جئت به - فإنهم معرضون كذلك عن آيات الكون المنظورة التي يرونها بعيونهم في السماوات من كواكب زاهرات ، وأفلاك دائرات ، و ما يمرون عليه في الأرض ، من : حدائق و جنات ، و جبال راسيات ، و بحار زاخرات ، و حيوان و نبات.

١- الدرس رقم (٩١)

٢- يوسف ١٠٥ - ١٠٧

نعم ..

(و كأين من آية في السماوات و الأرض يمرون عليها).

فسبحان الواحد الأحد ، خالق جميع أنواع المخلوقات ، المتفرد بالدوام و البقاء.

{و هم عنها معرضون} أي : لا يعتبرون ، و لا يستفيدون من الآيات و الدلائل التي يرونها.

و ذلك : بالرغم من أنك لو سألتهم {من خلق السماوات و الأرض} ؟ {ليقولن الله}.

و لكن إيمانهم هذا .. يرافقه شرك بهذا الخالق سبحانه و تعالى.

و لذا يقول عز و جل :

{و ما يؤمن أكثرهم بالله إلا و هم مشركون} أي : مع إيمانهم بأن الله هو الذي خلقهم ، و خلق السماوات و الأرض ، و ما فيهما : فإنهم يشركون معه - سبحانه- غيره ، من وثن ، أو بشر ، أو طبيعة ، أو غير ذلك.

مع أنه سبحانه : أقام الحجة عليهم.. بهذا القرآن المسطور من جهة.

فقد أقام الحجة عليهم بآياته المنظورة ، في الكون من جهة أخرى ، على هذا النحو .

و مع ذلك : فلم يلتفتوا.. إلى هذه الآيات ، أو تلك. . !!

و من التفت إليها ، أو إلى بعضها منهم : يؤمن بالله على شرك . !!.

و لذا .. فليس القصور في إقامة الحجة عليهم ،أو توضيح الدليل إليهم ..!! و لكن .. في العمى ، و السلوك المنحرف لديهم .

و من هنا .. أنذرهم الله عز و جل قائلا :

{أفأمنوا أن تأتيهم غاشية} أي : عقوبة تغشاهم و تشملهم.

{من عذاب الله} إن ظلوا على عنادهم ، و استمروا في شركهم ، و لم يؤمنوا إيمانا صادقا خالصا.

{أو تأتيهم الساعة} أي : أفأمنوا أن تأتيهم القيامة.

{بغتة} أي : فجأة ، دون إنذار بها ، أو استعداد منهم لها.

{و هم لا يشعرون} بمجيئها المفاجئ هذا.

و على هذا .. فإذا كان الحال .. أنهم : بين مداهمة عذاب الله لهم ، أو مداهمة القيامة ..!! فكيف لا يؤمنون ..؟ بل كيف يشركون ..؟

و في هذا : مواساة للنبي ρ ، و تخفيف لما يشعر به من آلام لعدم إيمانهم.

و كأني برب العزة يقول له : يا محمد ..!! لا تحزن لعدم إيمانهم ، فإن العيب فيهم ، و ليس فيك ، ولا في طريقة دعوتك لهم.

و في هذا درس تربوي للدعاة إلى الله ١.
مفاده : أن على الداعية إلى الله أن يبلغ ، و يدعو إلى الله بالحكمة و الموعظة الحسنة ، دون كلل أو ملل ، و دون انتظار للنتائج ، أو يأس من عدم رؤيتها.

ثالثا : بيان الطريق الواضح المستقيم في الدعوة إلى الله .

ثم أمر رب العزة حبيبه ρ و كل من يتعرض لمثل هذا الموقف المليء بالعناد ، أن يوضح طريقه ، و أسلوب دعوته ، و الهدف مما يدعو إليه ، إبراءً لذمته ، و إبلاغا لدعوته.

حيث يقول له : { قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا و من اتبعني و سبحان الله و ما أنا من المشركين}.

{قل هذه سبيلي} أي : هذا الذي أدعو إليه من الإيمان بالله و توحيده : هو طريقي ، و منهجي ، و سنتي ، و دعوتي.

و حتى يكون هذا السبيل واضحا ، و هذه الدعوة مفهومة.. لا لبس فيها ، و لا غموض حولها : فقد بينها بقوله :

أ ـ {أدعو إلى الله} أي : إلى دينه ، و توحيده ، و إخلاص العبادة له وحده.

ب ـ {على بصيرة} أي : على نور ، و بينة واضحة ، و حجة ظاهرة ، و يقين كامل ، و برهان ساطع.

و لست وحدي في ذلك ، بل :

{أنا و من اتبعني} أي : أدعو إلى سبيل الله ، و يدعو معي إلى ذلك – كذلك - كل من اتبعني و اهتدى بهداي.

ج ـ و سبحان الله} أي : في الوقت الذي أدعو فيه إلى الله تعالى.. على بصيرة ، أنا و كل من اتبعني في هذا الطريق ، و لهذه الغاية ؛ فإني أنزه الله تعالى ، و أقدسه ، و أجله ، و أعظمه ، عن الشريك ، و الند ، و المماثل ، و النظير ، سبحانه و تعالى عن ذلك علوا كبيرا.

د ـ {و ما أنا من المشركين} معه غيره.

و بالطبع : فإن من يدعو إلى ربه على بصيرة ، و ينزهه ، و يقدسه ، فليس بمشرك أبدا ، و لا يمكن أن يكون ، و لذا فـ {ما أنا من المشركين}.

١ـ الدرس رقم (٩٢)

و هنا درس تربوي هام للدعاة ١ :
حيث إنه لا بد من أن يتوافر للداعي إلى الله ..هذه الأمور :

١- أن يكون عمله في سبيل الله ، لا في سبيل غيره ، و لا يشرك فيه - كذلك- سبيل غيره.

٢- أن يكون العمل في سبيل الله على بساط من علم واسع ، و تخطيط جيد ، و تحديد للهدف ، و دراسة واعية للنجاح فيه.

٣- أن يكون مراعا فيه : تكوين الجيل التالي من الدعاة إلى الله عن طريق التربية ، الإيمانية ، الدعوية ، الواعية ، الهادفة (ومن اتبعنى).

٤- أن تكون مراقبة الله ، و تنزيهه ، نصب عين الداعية.

٥- أنه لا بد للدعاة إلى الله من أن يعلنوا بكل وضوح ، عن عقيدتهم و دعوتهم ، حتى تكون واضحة المعالم ، متميزة عن كل الدعوات.

٦- أنه لا بد: وأن يعلنوا أنهم أمة ، لها عقيدتها الخاصة ، التي تجمعهم تحت لوائها الخاص ، و تفارق بينهم و بين من لا يعتقد عقيدتهم ، و يدين بدينهم ، و يسلك مسلكهم ،
و يدين لقيادتهم.

فلا يكفي ..أن يدعو صاحب هذا الدين ، إلى دينه ودعوته ، و هو متميع في المجتمع الجاهلي ؛ و إلا فلا قيمة لدعوته ، و لا طائل من ورائها.

٧- أن لا يغتر الداعية بأي عمل يقوم به ، أو نجاح يحققه ، حتى لا يتسرب إليه أي لون من الشرك ، و لو كان خفيا ، فيفسد عليه عمله ، و يسرق منه جهده ، و يضيع له هدفه.

رابعا : مواساة الرسول صلى الله عليه وسلم بما حدث لإخوانه من الأنبياء عليهم السلام.

و بعد أن حدَّث رب العزة حبيبه مُوَاسِيًا له : عن عناد قومه و مكرهم ، كما عاند إخوة يوسف و مكروا به. .!!

١- الدرس رقم (٩٣)

و بعد أن لفت نظره .. إلى وجوب توضيح دعوته ؛ إعذارا إلى ربه ، و إبراءً لذمته ، و إبلاغا لدعوته.

انتقل معه بالمواساة : إلى فريق آخر من البشر ، و هم إخوانه من الأنبياء.

حيث يقول سبحانه و تعالى :

{و ما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم و لدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون} ١.

نعم ..

{و ما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى}

أي : لست بدعا يا محمد.. فيما تتعرض له ، و تلاقيه ، من العناد و المتاعب.

فلقد أرسلنا من قبلك رسلا كثيرين إلى أقوامهم ، و ما كانوا إلا رجالا أشداء أصحاء ، أهل : ألفة ، و عشرة ، كما كانوا ألطف طباعا ، و أحلم عقولا و أرشد سلوكا ، مع أقوامهم؛ لأنهم {من أهل القرى} المتصفين بهذه الصفات ، و ليسوا من أهل البادية ، أصحاب الطباع الخشنة ، و الأخلاق الجافة.

و مع ذلك : حدث لهم ما حدث لك.

كَذَّبَتْهُمْ أقوامُهم ، و عاندهم أهلوهم ، و أتعبوهم ، و أجهدوهم ، و لم يؤمنوا لهم.

فماذا فعلنا بهم ..؟

عاقبناهم على ذلك : بما يستحقون ، و بما هم له أهل.

{فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا و منهم من أخذته الصيحة و منهم من خسفنا به الأرض و منهم من أغرقنا و ما كان الله ليظلمهم ، و لكن كانوا أنفسهم يظلمون} ٢.

و لهذا ..

{أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم} ؟

و لو أنهم فعلوا ..!! لآمنوا بالله ، و اتقوا بفعل الطاعات ، و اجتناب المعاصي ، وصدقوك فيما جئت به ، و اتبعوك فيما تدعو إليه.

١ـ يوسف ١٠٩ ٢ـ العنكبوت ٤٠

{و لو أن أهل القرى آمنوا و اتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء و الأرض} ١.

و هذا : في الدنيا .. أوَّلا.

{و لدار الآخرة خير للذين اتقوا} ثانيا.

و بعد أن كان المولى يخاطب حبيبه ρ : التفت إليهم ، و ألقى بالملام عليهم ، حيث قال لهم ، لو كانوا يسمعون أو يعقلون :

{أفلا تعقلون} أي : هلا استخدمتم عقولكم التي أنعم الله عليكم بها ..؟

و لو أنكم استخدمتموها.. لقادتكم إلى الإيمان بالله ، و التصديق بمحمد ρ ، و كنتم من السعداء في الدنيا و الآخرة.

و هنا دروس تربوية هامة لهذه الأمة.

منها :

١- أن العقل نعمة إلهية ، يجب استخدامها فيما يوصل إلى معرفة الخالق.. من دراسة آياته، المسطورة، والمنظورة ٢، فى النفس والكون .

٢- أنه يجب الإفادة الدائمة من هذه النعمة ، بصيانتها عن الانحراف الفكري ، والتشتت الذهني ، فيما لا يفيد ، و لا يؤدي إلى زيادة الإيمان بالله ، و التقرب منه سبحانه ٣.

٣- أن دراسة تاريخ الأمم ، و معرفة مصارع المكذبين ، و وسائل نجاة المصدقين ، هو من شكر الله تعالى على هذه النعمة ٤.

٤- أن استخدام العقل ، استخداما طيبا : يقود إلى حسن الاعتبار ، و يؤدي بالتالي إلى : النجاح في الدنيا ، و النجاة في الآخرة ٥.

٥- أن اتباع طريق المرسلين ، و لزوم سنتهم ، و على رأسهم محمد ρ ، و الحياة على منهاجهم : دلالة على سلامة العقل ، و حسن استخدامه ، و علامة على حسن الخاتمة ، و عنوان على السعادة في الدنيا و الآخرة ٦.

❋❋❋

١-الأعراف ٢- الدرس رقم ٩٤ ٣- الدرس رقم ٩٥

٤- الدرس رقم ٩٦ ٥ -الدرس رقم ٩٧ ٦- الدرس رقم ٩٨

ثم بين رب العزة لحبيبه ρ ؛ إيناسا له ، و تأييدا لدعوته ، و إعلاما بنصرته ، و تعليما لأمته ، وتربية لأتباعه : ثلاثة أشياء ، هي في غاية الأهمية ، في قضية الدعوة إلى الله تعالى.

(أولها) : الحال التي وصل إليها الرسل ،عليهم صلوات الله و سلامه قبله ، بسبب هذا التكذيب لهم ، والعناد من أقوامهم ، فقال :
{حتى إذا استيأس الرسل و ظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء و لا يرد بأسنا عن القوم المجرمين} ١.
و المعنى : و ما أرسلنا قبلك يا محمد إلا رجالا بَلَّغُوا أقوامهم ، و أنذروهم بعذاب الله إن ظلوا على كفرهم ، و بشروهم بنعيمه إذا آمنوا به و اتبعوا رسله .
ولكنهم : لم يؤمنوا بهم، و كذبوهم ، و عاندوهم.
ثم .. لم نعاقبهم بالعذاب {حتى إذا استيأس الرسل} أي : يئسوا ، و فقدوا الأمل والرجاء في إيمان قومهم ، {و ظنوا أنهم قد كذبوا} أي : أيقنوا أن قومهم كذبوهم ، و لم يعد يجدي فيهم بلاغ ، أو ينفع معهم : إنذار ، أو تبشير ٢.
و السؤال الآن : ماذا حدث بعد ذلك ..؟
و الجواب فيما يلي :
(ثانيها) : {جاءهم نصرنا فنجي من نشاء} أي: جاء الرسل -في هذه الحال- نصر الله لهم ، بعذاب أقوامهم ، على عنادهم ، و تكذيبهم لهم ، ولم يَنْجُ من هذا العذاب إلا الأنبياء -فقط- و من اتبعهم ممن آمن بهم ، و سلك طريقهم.
و هذا معنى قوله تعالى {فنجي من نشاء}
(ثالثها): {و لا يرد بأسنا عن القوم المجرمين} أ ي : سُنَّتُنَا التي لا تتخلف ، هي إنزال عذابنا بالقوم الكافرين ، في الدنيا ، أو في الآخرة.
و هذه هي عاقبة الإجرام و الظلم : في الدنيا، كما رأيت ، و في الآخرة : أشد و أبقى أنكى.
و بالتالي : فعاقبة الاستقامة على الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين : هي الفلاح في الدنيا ، و النجاة من غضب الله ، و الفوز برضوانه في الآخرة.

١ـ يوسف ١١٠ ٢ـ انظر : القرطبي ٢٧٤/٩

و لذلك .. فلا تيأس يا محمد ، و لا تبتئس بما يفعله معك قومك ، و نحن إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك و لكن الظالمين بآيات الله يجحدون * ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا و أوذوا حتى أتاهم نصرنا و لا مبدل لكلمات الله و لقد جاءك من نبأ المرسلين} ١.

و عرفت من أنبائهم : أن العاقبة للمتقين ، و أن السوآى على الظالمين الكافرين.

خامسا الهدف من ذكر القصص القرآني في كتاب الله تعالى .

ثم يوضح رب العزة -في خاتمة السورة ، و خاتمة القصة- الحكمة في سَوْق هذه القصة، وغيرها، في كتاب الله تعالى ، و الاهتمام ببيانها على هذا النحو فيقول :

{لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى و لكن تصديق الذي بين يديه و تفصيل كل شيء و هدى و رحمة لقوم يؤمنون} ٢.

{لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب}

أي : ليست قصص القرآن ، و لا مواقف الأنبياء و الرسل ، و لا الحديث عن مصارع المكذبين ، و لا صور الإنعام على المتقين .. إلى غير ذلك مما في القرآن ، من هذا القبيل : هو من باب التسلية ، و قتل أوقات الفراغ ، أو إمتاع الخيال ، أو .. أو .. الخ.

لا .. و ألف لا ..

إنما قصص القرآن : عبرة ، و عظة ، و تعليم ، و دروس تربوية عملية ، و أسلوب من أساليب الدعوة ، و لون من ألوان الإقناع ، و طريقة من طرق التبليغ.

و لكن .. لا يدرك ذلك كله .. إلا أصحاب العقول المتفتحة ، المتقبلة لهدى الله ، التي أنعم الله عليها ، بحسن التفكر في آلائه ، و الحمد على نعمه ، و الشكر على إنعامه.

كما أن هذا القصص : حقيقي ، صدق كله ، ليس من صنع الخيال ، و لا من تُرَّهَات المؤلفين ، و لا من اختراعات البشر ، و لو كانوا هم الأنبياء.

{ما كان حديثا يفترى} إنما هو : وحي من عند الله .. فيه التشريع لهذه الأمة ، و فيه الدستور لحياتها ، و المنهاج لسلوكها ، كما أن فيه: بيان الصواب ، و تحليله لها و لأفرادها ، و فيه: بيان الخطأ المؤذي و المهلك المدمر ، و تحريمه عليها و على أفرادها .

و ما كان كذلك : فليس بمختلق و لا مكذوب.

{و لكن} نوضح أهداف هذا القصص فيما يلي :

١- الأنعام ٣٣ ، ٣٤ ٢- يوسف ١١١

١ - {تصديق الذي بين يديه} أي : مصدقا لما سبقه ، و نزل قبله على الأنبياء السابقين من كتب.

بل : إنه يصدق ما فيها من صحيح ، و ينفي عنها ما فيها من تحريف و زيف و تبديل و تغيير ، و يحكم عليها بالنسخ أو التقرير.

٢- {و تفصيل كل شيء} من تحريم و تحليل ، و محبوب و مكروه ، و غير ذلك : من الأمر بالطاعات و الواجبات و المستحبات ، و النهي عن المحرمات ، و ما شاكلها من المكروهات ،و الإخبار عن الأمور الجليلة ، و عن الغيوب المستقبلة ، المجملة ، والتفصيلية.

و بالجملة : فإن القرآن .. تفصيل لكل شيء يحتاج إليه في الدين.

لأنه كما يقول الإمام النسفي:هوالقانون الذي تستند إليه السنة، والإجماع و القياس.

و من هذه الآية ..!! و من قوله تعالى {و نزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء} ..!! فهم العلماء : أنه ما من قضية إلا و لها في القرآن حكم ، عرفه من عرفه ، و جهله من جهله.

و حقيقة : كتاب هذا شأنه لا يكون إلا من عند الله ١.

٣- {و هدى و رحمة لقوم يؤمنون} و هذا هو الهدف الرئيسي و الأساسي من القرآن الكريم ، و من قصصه كذلك.

هدى : من الضلال ، و هداية للرشاد ، و الاستقامة ، و الفلاح {إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم }.

و هو رحمة : من متاعب الحياة و لأوائها ، و رحمة في الآخرة من غضب الله وعذابه.

و لكن .. هدى .. لمن ..؟ و رحمة .. لمن ..؟

{لقوم يؤمنون} به ، و يعملون بأحكامه ، فيلتزمون بحلاله و حرامه ، و يجعلونه قانونهم ، و منهاج حياتهم.

* * *

و كتاب هذا شأنه ..
فيه : الهدى في كل أمر ..!!

١- انظر : الأساس ٢٧٠٩/٥

و فيه : الرحمة في شأن الدنيا و الآخرة ..!!
في شأن الجسد و القلب ، في شأن الروح و العقل ، في شأن الفرد و المجتمع.
كتاب هذا شأنه .. لا يمكن أن يكون إلا من عند الله.

و هكذا .. حَطَّمَتْ سورةُ يوسف الشكوكَ حول القرآن و من جاء به ، في سياقها العام.

و أعطت في كل آية من آياتها : دروسا لا تنتهي.

و من دروسها العامة ، و التي نختم بها كلامنا :

أن في ذكر قصة يوسف عليه السلام و إخوته -في هذا الوقت بالذات- تصبير لرسول الله ρ على أذى قريش.

كأن الله تعالى يقول له : إن إخوة يوسف مع موافقتهم إياه في الدين ، و مع أخوتهم له .. فعلوا ما فعلوا مع يوسف من الكيد و المكر ، و الإيذاء ..!!

و صبر على ذلك ..!!

فأنت مع مخالفة قريش لك في الدين : أحرى أن تصبر على أذاهم ، مع اليقين بحسن العاقبة.

و قد فعل ρ ، و أحسن الصبر ، و نال حسن العاقبة.

ندعو الله تعالى : أن نُحْسِنَ التأسي به صلى الله عليه وسلم ، وأن ننال ـ بسبب ذلك ـ حسن العاقبة .

إنه ولي ذلك والقادر عليه .

وصلي الله وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه ، الطيبين الطاهرين .

فهارس الكتاب

فهرس المراجع

١-القرآن الكريم .

٢-إرشا د العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبى السعود ت ٩٥١ هـ

٣-الأساس فى التفسير. سعيد حوى ت١٤٠٩هـ

٤-البحر المحيط . لأبى حيان ت٧٥٤ هـ

٥ بدائع التفسير. لإبن القيم ت ٧٥١ هـ

٦-تفسير القرآن العظيم لإبن كثير ت٧٧٤هـ

٧-تفيسير المنار لرشيد رضا ت ١٣٥٤هـ

٨-ثقافة الداعية د. يوسف القرضاوى

٩-الجمع لأحكام القرآن للقرطبى ت ٦٧١ هـ

١٠-دروس تربوية د . عبد الحى الفرماوى

١١- روح المعانى للآلوسى ت١٢٧٠ هـ

١٢- زاد المسير لإبن الجوزى ت٥٩٧ هـ

١٣-سنن إبن ماجه لإبن ماجه ت٢٧٣ هـ

١٤-سنن الترمذى للترمذى ت٢٦٧ هـ

١٥-سيرة إبن هشام لإبن هشام ت ٢١٨ هـ

١٦- صحيح البخارى للإمام البخارى ت٢٥٦ هـ

الكتاب	المؤلف	الوفاة
١٧- صحيح مسلم	للإمام مسلم	ت ٢٦١ هـ
١٨- فتح القدير	للشوكانى	ت١٢٥٠ هـ
١٩-الفتوحات الإلهية	لسليمان الجمل	ت١٢٠٤ هـ
٢٠- فى ظلال القرآن	لسييد قطب	ت ١٣٨٥ هـ
٢١- مجلة المجتمع		
٢٢- مجمع الأمثال	للميدانى	
٢٣- المحرر الوجيز	لإبن عطية	ت ٥٤٦ هـ
٢٤ –مختصر منهاج القاصدين	لإبن قدامة المقدسى	
٢٥- مسائل الرازى وأجوبتها	لمحمد بن أبى بكر الرازى	ت ٦٦٦هـ
٢٦-مسند أحمد	للإمام أحمد	ت٢٤١ هـ

كتب للمؤلف

١ ـ الإرهاب بين الفرض والرفض .. في ميزان الإسلام.

٢ – الاستقامة .. (فلاح في الدنيا .. ونجاة في الآخرة) سلسلة : نحو جيل مسلم.

٣– البداية في التفسير الموضوعي .

٤ – تدوين القرآن الكريم .

٥– جراحة التجميل (بين التشريع الإسلامي والواقع المعاصر

٦ – حرب الخليج في ميزان الإسلام (أسباب وأحكام)..

٧ – الخلافات الزوجية (صورها – أسبابها – علاجها من القرآن والسنة).

٨ ـ دروس تربوية من الهجرة النبوية.

٩– رسم المصحف بين المؤيدين والمعارضين .

١٠ – ١٢زاد الدعاة من هدى القرآن الكريم (ثلاثة أجزاء).

١٣ – زينة المرأة (بين التشريع الإسلامي والواقع المعاصر).

١٤ ـ السلام في الاسلام .

١٥ – صحوة في عالم المرأة (رد على د . زكى نجيب محفوظ)..

١٦ ـ الصربيون خنازير أوربا

١٧ ـ عشر مخالفات شرعية في مؤتمر السكان١٩٩٤ .

١٨ – قصص الأنبياء للإمام بن كثير ٧٧٤ هـ (تحقيق).

١٩ – قصة النقط والشكل في المصحف الشريف.

٢٠ – كتابة القرآن الكريم بالرسم الإملائي أو الحروف اللاتينية (اقتراحان مرفوضان). سلسلة : نحو النور.

٢١- ليلة القدر في الكتاب والسنة.

٢٢– المسلمون بين الأزمة والنهضة

٢٣-مشروع برنامج تربوى إسلامىلإصلا النفس.

٢٤- مقدمة في التفسير الموضوعي .

٢٥- منجد المقرئيين .. للإمام(ابن الجزري) ت ٨٣٣ هـ (تحقيق).

٢٦- الموت في الفكر الإسلامي

٢٧– الموت وأهوال القيامة (للإمام الغزالي ٥٠٥ هـ (تحقيق).

٢٨ – موسوعة التفسير الموضوعي .ج١

٢٩ – وصايا سورة الإسراء.

الفهرس الموضوعى

الصفحة

الفصل الثاني (وقال الذي اشتراه من مصر لإمرأته أكرمى مثواه)

١- المشهد الأول (أكرمى مثواه)
٢- المشهد الثاني (وراودته التي هو في بيتها)
٣ ـ المشهد الثالث (ما جزاء من أراد بأهلك سوءا)
٤- المشهد الرابع (وقال نسوة في المدينة)
٥ ـ المشهد الخامس (السجن أحب إلي مما يدعونني إليه)

الفصل الثالث . (ودخل معه السجن فتيان)

١ ـ المشهد الأول (إني أراني أعصر خمرا)
٢ ـ المشهد الثاني (إن الحكم إلا لله)
٣ ـ المشهد الثالث (إني أرى سبع بقرات سمان)
٤ ـ المشهد الرابع (قال تزرعون سبع سنين دأبا)
٥ ـ المشهد الخامس (الآن حصحص الحق)

الفصل الرابع : (وكذلك مكنا ليوسف في الأرض)

١ ـ المشهد الأول (قال اجعلني على خزائن الأرض)
٢ ـ المشهد الثانت (وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه)
٣ ـ المشهد لثالث (أرسل معنا أخانا)
٤ ـ المشهد الرابع (يا بني لا تدخلوا من باب واحد)

الفصل الخامس : (صواع الملك)
١ ـ المشهد الأول (إني أنا أخوك)
٢ ـ المشهد الثاني (أيتها العير إنكم لسارقون)
٣ ـ المشهد الثالث (استخرجها من وعاء أخيه)
٤ ـ المشهد الرابع (ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل)
٥ ـ المشهد الخامس (لن أبرح حتى يأذن لي أبي)

الفصل السادس : (هذا تأويل رؤياى من قبل)